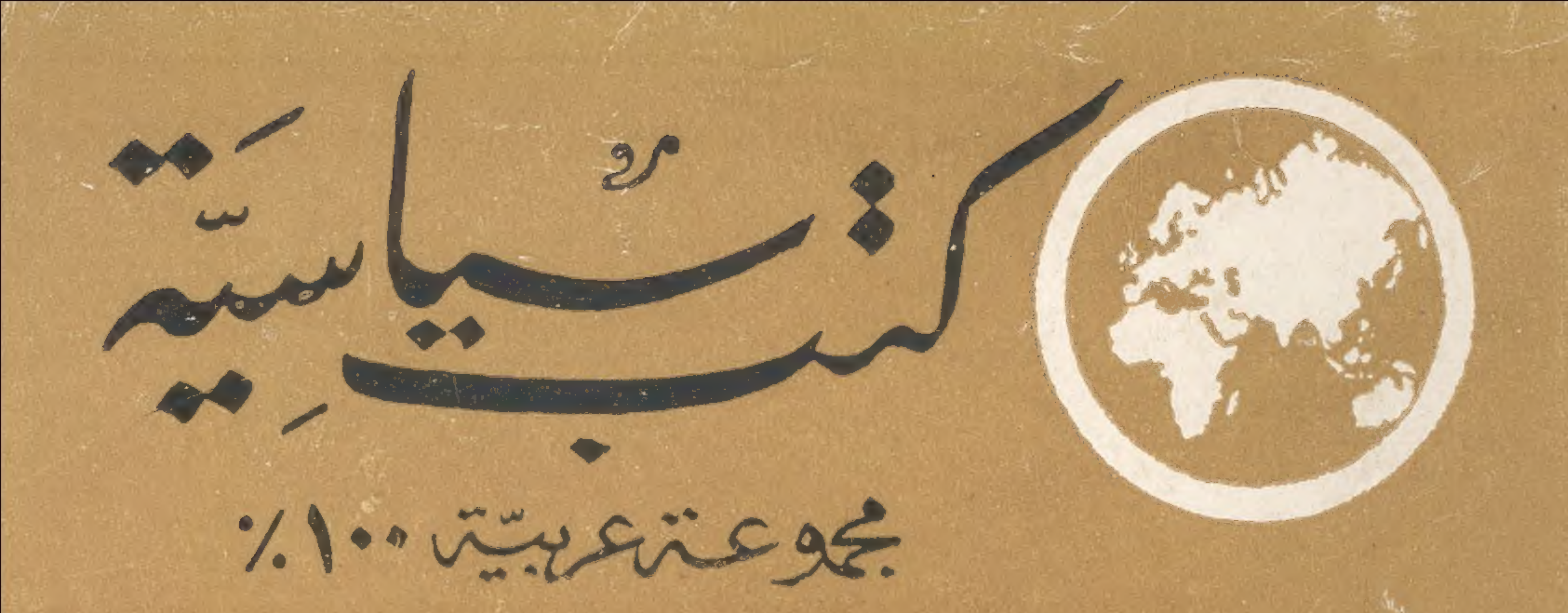


شعاع من الأمل

في جنوب أفريقيا

بقلم: ألان باتون

ترجمة : رياض عبد المجيد

مراجعة : عبد الحميد الاسلامبولي

كتب سياسية

شعاع من الأمل

في جنوب أفريقيا

بقلم: ألان باتون

ترجمة : رياض عبدالم
مراجعة : عبدالحميد ا

تقـــديم

لقد أصبحت المشـــكلات التى تواجه جنوبى افريقية مثلا لكل المشكلات الميئوس منها ؛ اذ ما الخير الذى يرجى لقطر أنقسم سكانه بشكل واضح الى جماعات كثيرة لاتقبل الوفاق بعضها مع بعـض : جماعات البريطانيين والافريكانيين والملونين ؛ والافريقيين ؛ والهنود .

ومع ذلك فجنوبى أفريقية من أعظم بلاد العالم ، انه قطر غنى بموارده المعنوية والمادية .

ومؤلف هذا الكتاب من الرجال القياديين فى جنوبى أفريقية ، وهو رجل يتمتع بسمعة عالميـــة واسعة بوصفه روائيا بارعا وانسانيا عظيمـــا .

وفى هذا الكتاب ، يضع الرجل فلسفته السياسية ؛ على عكس سياسة اليأس ، انه يتطلع الى المستقبل من خلال عدسة الماضى والحاضر ويرمق الأمل البعيد أمامه ؛ وليس الرجل متهورا أو مندفعا ؛ انه يبين بوضوح وصراحة كيف يمكن التغلب على كل العقبات الهـائلة التى تقف فى الطريق ، وذلك اذا ما تيسر ولو نذر يسير من النيـــات الطيبة .

محتويـــات الـــكتاب

الفصل الأول

افتتاحية

تتركز السلطة السياسية بأكملها فى جنوبى أفريقية فى أيدى الجنس الأبيض • ويستثنى من ذلك تمثيل الافريقيين فى مجلس الشيوخ بوساطة أربعة من الأوروبيين ، وفى مجلس النواب بوساطة ثلاثة من الاوروبيين يقوم الافريقيون بانتخابهم ، ويمثل الملونين أربعة من الأوروبين يقومون هم أيضا بانتخابهم • وفى وقت ما ؛ كان الأفريقيون والملونون الذين تنطبق عليهم شروط الانتخاب فى مقاطعة « الكاب » مدرجين فى القائمة العامة ؛ وكانوا يصوتون مثل أى فرد آخر ؛ عدا النواب المنتخبين الذين يجب أن يكونوا من البيض ، ولكن الجنرال « هرتزوج » وحزبه المتحد قد تمكن فى عام ١٩٣٦ بمساعدة الحزب الوطنى الذى يرأسه الدكتور « مالان » من الحصول على أغلبية الثلثين اللازمة لعزل الناخبين الأفريقيين فى قائمة منفصلة وفى عام ١٩٥٦ حصل المستر « ستريجدوم » وحزبه الوطنى على أغلبية الثلثين وذلك بزيادة مقاعد مجلس الشيوخ ؛ ومن ثم فقد عزلوا الناخبين الملونين جانبا •

وعلى هذا ؛ فاننا نجد اليوم ان السكان البيض فى جنوبى أفريقية

وجنوب غربى أفريقية يمثلهم فى البرلمان ١٥٦ عضـــوا ؛ فى حين يمثل السكان غير البيض سبعة أعضاء ؛ وفى مجلس الشيوخ يمثـل الفئتين ٥٨ عضوا ثم على التوالى •

ولا يمثل الهنود فى البرلمان على الاطلاق • وفى عام ١٩٤٦ منح « الجنرال سمسطى » وحزبه المتحد الهنود تمثيـلا رمزيا كذلك الذى منح للافريقيين والملونين ، وذلك تعويضا لهم عن القيود التى فرضت على أراضيهم وممتلكاتهم الخاصة ؛ ولكن الدكتور مالان وحزبه الوطنى ألغى هذا الحق عندما أمسك بزمام السلطة فى عام ١٩٤٨ ، قبل أن يباشر الهنود هذا الحق ؛ والذى نشك فى أن الهنود كانوا يستعملونه •

لقد كان الوطنيون ينظرون دائما الى السكان الهنود كغرباء عنهم أو دخلاء عليهم ، وكانوا يعمدون الى عزلهم بشدة ؛ عـلى أمل أن يحملهم ذلك على الرجوع الى الهند • ولقد تولدت الاغلبية الساحقة للهنود فى جنوبى أفريقية كنتيجة للجهود المشتركة التى قام بهـــا أصحاب مزارع قصب السكر وحكومة ناتال فى النصف الاخير من القرن الماضى لاحضار أسلافهم •

وكذلك لم تمثل المرأة الملونة فى مقاطعة الكاب وكل الملونين من الرجال والنساء فى مقاطعة الترنسفال وأورانج الحرة •

هذا هو الوضع الحالى باختصار • فمن بين ٢٥٢ نائبا ؛ نجد ١١ يمثلون الافريقيين والملونين ؛ سبعة لمجلس النواب وأربعـــة لمجلس الشيوخ ؛ وهؤلاء أيضا يجب أن يكونوا من البيض • وحتى هؤلاء

النواب ليسوا فى مأمن ، فمن المحتمل أن تستغنى الحكومة فى تطبيقها لسياسة الحكم المحلى عن النواب الوطنيين السبعة جميعهم ؟ وقدعبرت الجهات العليا عن رغبتها فى القيام بذلك .

ومما يدعو الى الدهشة والتساؤل : هل هؤلاء انواب الملونون الأربعة فى مأمن ؟ اذا أحرزت التفرقة العنصرية بالنسبة للسكان الملونين أى تقدم ؟ اذ ربما تكون لهم سلطتهم الخاصة فى يوم ما ولا سيما وقد كانت لهم ادارة لشئون الملونين من قبل . وفضلا عن ذلك فكثير من البيض فى جنوبى أفريقية لا يرون من المحتمل أن يمسك أربعة من النواب الملونين بميزان القوة فى مجلس النواب . ومن الممكن أن نعتبر اذن ، أن برلمان جنوبى أفريقية سوف يضم النواب البيض فى يوم ما ؟ والذين يمثلون السكان البيض وحدهم . ذلك هو اتجاه السياسة المعاصرة ان لم يكن هدفها .

وكيفما يكن الأمر ؟ فان عددا كبيرا من البيض فى جنوبى أفريقية يدركون ان هـــذا الوضع غير مستقر . ويسعى الحزبان الرئيسان الى تثبيت هـــذا الوضع بشتى الطرق والآن فلنستعرض باختصار سياستهما .

لقد تبنى الوطنيون « الأفريكانيون » سياسـتين على الأقل ويتصرف الوطنيون على افتراض انه من المستبعد كلية والى الأبد ، أن يتساوى البيض وغير البيض فى الحقوق داخل المجتمع نفسه ، ومن ثم فانهـــم يتأرجحون بين سياستين . الاولى وتسمى « النمو

المنفصل » أى ضمان المسواة بوساطة استئثارهم كلية بمناطق منفصلة خاصة بهم ؛ ويحمل لواء هذه السياسة المثاليون والمثقفون • والثانية وتسمى « باسكاب » ؛ وهى تعنى بوضوح سيادة الجنس الأبيض ؛ ويرى مؤيدو هذه السياسة ان العزلة الاقليميـــة غير ممكنة ؛ وان حضارة البيض ؛ سوف تعيش فقط اذا ما حاربوا من أجلهـــا وفى الوقت نفسه يؤيد عدد كبير من الوطنيين قوانين «الباسكاب» وذلك لأنهم يعتبرونها خطوة بعيدةالمنال فى طريقالعزلةالاقليمية ؛ وتراها بعض السلطات هدفا من المحتمل عدم الوصول اليه بعد مائة عام أو يزيد ومن ثم يعيش كثير منالوطنيين فى عالمين : السكوت علىالظلم فى هذا العالم الموجود ؛ حتى يكون هناك عدل فى العالم الآخرالذى لم يظهر بعد الى الوجود •

والحزب الثانى الكبير هو الحزبالمتحد ؛ الذى حصل فى ١٦ من أبريل عام ١٩٥٨ على نصف أصوات القطر وعلى ثلث المقاعد فقط ويمثل هذا الحزب الغالبية العظمى من الناطقين باللغة الانجليزية ؛ وجزءا قليلا من الافريكانيين الذين يرثون تقاليد «بوثا» و «سمطس» القديمة عن التعاون والوفاق ومن الممكن أيضـــا ان يقال عن هذا الحزب انه يتبع سياستين لاتتفقان تماما ؛ ومع ذلك فانهما تندمجان فى سياسة واحدة « فى ميثاق خماسى » هى التفرقة مع العدالة • وهو حزب دينى ؛ سوفسطائى يؤمن بالقرارات النوعية ؛ ويؤمن بالقبول (الواقعى) للوضع الحالى ؛ والتكيف مع الاحداث الجديدة بشـــكل تقدمى ؛ • من ثم ففى استطاعة زعمائه ان يتصوروا أنفسهم كزعماء

للقارة الافريقية ؛ في الوقت الذي يفتقرون فيه الى الارتباط السياسى والاجتماعى بالافريقيين فى بلدهم •

وهناك حزب صغير توارى فى انتخابات عام ١٩٥٨ وهو حزب العمال المتحد وقد سحق الحزب المتحد زعيمى هذا الحزب ؛ وهما المستر الكس هيبـــــل مرشح روز تينفيل والمستر ليونوفيل مرشح بينونى ؛ اللذان يتسمان بالشجاعة والتقدمية ؛ لانهمـــا قررا عدم الانضمام الى ذلك الحزب المتحد وتبين الاصوات التى حصل عليهما كل من الرجلين « المستر هيبل ٩٧٤ صـــوتا والمستر لوفيل ١٦٩٦ صوتا » حقيقتين هامتين : أولاهما ؛ أن ناخب الحزب المتحد لا يؤيد الافكار التقدمية ؛ وثانيتهما ؛ قلة عدد الناخبين التقدميين من البيض • واذا ما قارنا مجموع الاصوات التى حصل عليها رجلا حزب العمال بما حصـــل عليه زعماء حزب الأحرار فى أقاليم الأورانج وبيتر مارتيزبرج ونقطة البحر وجدنا أن عدد ناخبيهم يصل الى مايقرب من ٠٠٠ر١١ فرد • ولكن ثمت حقيقة مهمة يجب أن نتذكرها ؛ وهى أن هذه هى المرة الأولى منـــذ الوحدة (١٩١٠) التى وضعت فيها الأفكار الحرة والتقدمية أمام الناخبين • وفى هـــذه الفترة توارى العمال • لقد كان ذلك أمرا لا مفر منه ؛ فأعضاء الحزب كانوا من البيض كلهم ؛ فى حين كان كل العمال من السود تقريبا •

وبينما توارى حزب العمال ؛ ظهر حزب الاحرار فى هـــذه الفترة • واليوم نجـــد أن حزب الاحرار هو أقل الاحزاب تأثرا بالنجاح الساحق الذى يحرزه الحزب الوطنى فى الانتخابات • فهو

لا يتوقع أى تحسن فى الموقف وهو يعتبر أن الوطنية والحرية هما المسألة الحقيقية المطروحة أمام الناخب الابيض • والحزب لا يتوقع أى تأييد ملحوظ من الناخبين ؟ وذلك لانه يناضل من أجل مجتمع مشترك تتكافأ فيه الفرص للجميع ؟ وهو هدف لا يقبـــله كثير من البيض فى جنوبى افريقية فى الوقت الحالى ؟ لانهم يرتعدون خوفا من أن يكتسح الوطنيون الرجل الابيض أو يطردوه •

هل سيقبل الناخبون هدف هذا الحزب فى وقت ما ؟ وهل يعد البيض فى جنوبى أفريقية أنفسهم لدخول معقـــل الحزب الوطنى ؟ حيث تدور المعركة التى ستؤدى بهم الى الموت ؟ وهل هناك أى أمل للاحرار ؟ من أجل مجتمع مشترك يعمل فيه الجميع ؟ مجتمع يكفل حرية الفرد وحكم القانون أو هل سيبدل حكم الجنس الأبيض بحكم الجنس الأسود ؟ واذا ما حدث ذلك ؟ فهل سيأخذ الجنس الأسود بالثأر ؟ أو هل سيكون الجنس الاسود ــ نظرا لعـــدم خوفه من أن يكتسح ــ أعدل مع الجنس الأبيض عما كان عليه الجنس الأبيض معه؟

هذه هى الاسئلة التى سيحاول هـــذا الكتيب ان يبحث عن اجابة لها •

الفصل الثانى

معنى كلمة الاحرار فى جنوبى أفريقيا

من الحكمة فى البداية أن نشير الى المعنى الخاص الذى يرتبط بكلمتى « الأحرار » و« مذهب الأحرار » فى جنوبى أفريقية . فمذهب الاحرار فى جنوبى أفريقية ؛ ولو أنه يشترك فى نقط معينة مع مذهب الاحرار فى الاقطار الأخرى ؛ ومع أن مبادئه هى مبادىء الاحرار فى كل مكان الا أنه يختص بصفة عامة ؛ هى اهتمامه الخاص بالعدالة بين الأجناس فمن الحرية فى جنوبى أفريقية أن نطالب بأن يكون للمثقفين الافريقيين صوت انتخابى ومن الحرية أيضا أن نطالب بأن يشارك كل الافريقيين مشاركة كاملة فى عملية الحكم .

ومن الحرية أن نطالب بالسماح للتجـار الهنود بأن يقـوموا بتجارتهم فى أية مدينة ؛ ومن الحرية أيضا أن ندفع أى نوع من الظلم الذى يقع على رجل غير أبيض . وقد كان من الحرية فى النصف الاول من القرن الماضى أن نطالب بحماية العبيد والخدم من بطش أسيادهم القساة .

ومن ثم فقد اتخذت كلمة « الحرية » فى جنوبى أفريقية معناها

الخاص ومن الممكن استعمالها بمعان أخرى ، بمـا فى ذلك المعانى التى توصل اليها الناس من قبل فى أقطار أخرى ، ولكن هذا التحول فى جنوبى أفريقية ربما يحتاج الى توضيح •

ورجل الاحرار يمتدح كلمة « الحرية » بالطبع عندما يستعملها فهى ربما لاتعنى شيئا أكثر من أن شخصا أبيض يناضل من أجل رفع القيود عن الاشخاص غير البيض ، شخصا لاتغل عادات الاصل وتقاليد الجنس يديه وقدميه ؛ شخصا على استعداد لان يقبل قدرا متزايدا من تطبيق العـدالة فى المجتمع لامجرد فكرة العدالة فحسب • وعـلى العموم فانا نجد أعضاء حزب الأحرار البيض أكثر استعدادا للاختلاف عن الأحرار خارج الحزب وهم على العمـــوم يؤيدون المساواة فى الفرص والظروف بين البيض وغير البيض بالرغم من أن بعضـــهم يصرون على وجود فترة انتقالية للوصول الى هذه المساواة •

ولكن يوجد هناك أحرار آخرون ليسوا من البيض ، ومن ثم فانهم يؤيدون شيئا أكثر من حق المساواة بين البيض وعير البيض انهم يؤيدون حقوق كل البشر ويدافعون عمـا يســـعى بالحريات الأساسية للرجل ، ضد القانون أو البوليس أو البرلمان أو الحكومة. ووجود هؤلاء الاشخاص فى منظمة للاحرار ذو قيمـة لاتقدر ؛ وذلك لأن مذهبهم ينبع من تجارب مختلفة للحياة •

ومذهـــب الاحرار ، اذا ما نظـــر اليه من أى من هاتين الوجهتين ، فهو ثمرة نضال الرجل الفرد ؛ انه متيقظ للدفاع عنه ضد

أى اعتداء على حقوقه وحريته ؟ وهو يتوق الى خلق مجتمع تكون فيه الحياة ذات صبغة انسانية •

وفضلا عن ذلك ، تحمل كلمة « الحر » بالنسبة للبيض من أعداء مذهب الاحرار فى جنوبى أفريقية معنى آخر . وهو معنى وضيع يحمل وصمة « التفكك » و « الاهمال » و « الهرجلة » فرجل حزب الاحرار ربما بدا لبعضهم مجرد شخص يدافع عن فلسفة مخطئة ؟ وبالنسبة للآخرين يعتبر شخصا فقد ذاته وأصبح لاوجود له لأنه يدافع عن كل الأشياء لكل الرجال ، فهو اذن رجل فقد نوعيته وجنسه وذاتيته ، رجل فقد كبرياءه لانه يصبح ذلك الرجل المعين الذى أراد الله له ان يكون ؟ وأراد له امتلاك لغته الخاصة أو ثقافته الخاصة لكى يحمى هذه الخصائص ويدافع عنها ويستشهد من أجلها •

ولذلك فاننا نجد ان الرهبان والراهبات البيض فى جنوبى افريقية يستطيعون بسهولة ان يكرهوا وان يحتقروا مذهب الاحرار؛ وأن ينظروا اليه لا باعتباره مذهبا يؤيد العدالة بين الأجناس ؟ ولكن باعتباره فلسفة للتدهور فلسفة أولئك الذين اختاروا الطريق السهل للاختلاط بلا تمييز ، بدلا من حماية « ذاتيتهم » كما يعنى الله • ومن المتوقع اذن ان يتهموا هؤلاء الاحرار البيض بالاهمال فى حياتهم ؟ وبالعبث الجنسى ؟ أو الاستعداد للسير فى هذا الاتجاه ، وعلى وجه الخصوص الاحتقار العنصرى للجنس واللون • ومن

المتوقع ايضا ان تأتى هذه الاتهامات الموجهة ضـــد الاحرار فى الغالب من أفقر معارضيهم البيض وأقلهم ثقافة .

ان هذا الاهمال من جانب الاحرار ينطبق على المسائل الدينية أيضا ، هذا هو مايقوله أعداؤهم ، ان كون الشخص « حرا » فى المسائل الدينية ؛ وكونه يعرف ويحب أشخاصا من ديانات أخرى أو ممن لا دين لهم ؛ يجعلهم يتهمونه بالالحاد أو « اللادينية » ؛ ولكنه اذا ماكان متدينا فانه سيشغل بأله « بحب » الله ؛ ويراقبـــه فى كل أعماله .

ولكلمة « الأحرار » معنى آخر يستعمله الأعداء الأكثر تطرفا؛ ويرتبط هذا المعنى المضاد عموما بالأحرار البيض ؛ حيث أن الأحرار الآخرين ينظر اليهم كأشخاص أغبياء مخدوعين . فان كونك من الأحرار يعنى عند هؤلاء النقاد أنك ضيف مهادن ؛ أو أنك لاترغب فى أن تقوم بأية تضحية حقيقية من أجل هذه المثل النبيلـة ؛ أو أنك لاتريد مواجهة المستقبل القاسى المرير للصراع القاس المرير ؛ أو أنك انسن منافق لا تهتم بالعدالة ولكنك تهتـم بنفسك وحدها أو أنك تحاول بقصد أو بغير قصد ؛ أن تثلم حدة المقاومة للسود ؛ وذلك بجذب المحاربين الى مغاور الحب ...

ولسوف تحاول هذه المقالة أن توضح للقـــارىء الأســـباب التاريخية للمعانى الخاصة التى اكتسبتها كلمة الاحرار ومشتقاتهـا الاخرى فى جنوبى افريقية . وسوف تحاول أن تسرد تاريخـــنا

موجزا لجنوبى أفريقية بدونه لايمكن ان نفهم الموقف الراهن فى تلك البلاد . وسوف تحاول من وجهة نظر الأحرار أن تستعرض الحاضر ، وأن تكشف المستقبل . انهـــا سوف تستعرض الأحرار من حيث موقفهم ومهمتهم وماضيهم ومستقبلهم فى جنوبى افريقية ثم التحديات الخطيرة التى واجهتهم ، دون ان تغفل المقـالة ذلك الدور الذى يساهم به الأحرار ممن لايرتبطون بالحزب أو ممن لايشتغلون بالسياسة ومع الحرص على تقديم وجهة نظرهم بوضوح، فان المقالة كلها سوف تصور وجهة نظر انســـان معروف لحزب الاحرار ، انسان يعتقد انه من الافضل للحزب ان يمثل قضـــية الاحرار .

الفصل الثالث

مقدم الهولنديين

من الممكن أن يكون السرد الموجز لتاريخ جنوبى أفريقية ؛ وخصوصا عندما يقوم غير المؤرخين بكتابته ، عرضة لكثير من النقد ومع ذلك ، فليس هنالك طريق آخر كى نسلكه . اننا لانستطيع أن نستغنى عن التاريخ ويجب أن يكون هذا التاريخ موجزا .

وبالنسبة لكل الاقطار فى نظرى ، لايمكن أن نفهم سياستها تماما مالم نعرف تاريخها . وفيما أظن ، ينطبق ذلك على جنوبى أفريقية أكثر من معظم البلدان الأخرى ، والا فمن الصعب أن نفهم العلاقة الباردة بين رجال جنوبي أفريقية الذين يتحدثون بالانجليزية والافريقية ؛ أو ان نفهم المزيج من الخوف والاشمئزاز والواجب والعدالة والاحسان ؛ والذى يميز موقف البيض فى جنوبى أفريقية تجاه غير البيض ؛ والشك العميق الذى يميز موقف غير البيض تجاه البيض .

ومع ذلك ؛ فانني أستميح القارىء عذرا فى البداية لهذه العجالة التاريخية المقتضبة ؛ التى ضحت بالتفاصيل من أجل الوضوح . ولكننى

فى الوقت نفسه سأدافع عنها ؛ لأننى أجد فيها الكفاية فى ظل كل الظروف .

ينسب هيرودوت ـ مؤرخ الآثار المشهور ـ الى « ننجو » الذى حكم مصر ؛ قبل الميلاد بستمائة عام ؛ أنه أرسل المكتشفين عن طريق الساحل الشرقى لافريقية ؛ وأمرهم بأن يبحروا حول القـــارة وأن يعودوا عن طريق البحر الأبيض . وقد فعل الرجال ذلك وعادوا الى مصر بعد سنوات ثلاث . ونحن نظن أن هؤلاء البحـــارة هم أول من شاهدوا « جبل تيبل » من البحر .

وبعد ذلك بألفى عام أى فى عام ١٤٨٦ م اكتشف «الكاب» ففى هذا العام وصل بارثولومى دياز ، الذى أرسله الملك جون ملك البرتغال ؛ الى خليج الجوا (بورت اليزابيث) . وعند ابحاره فى طريق العودة رأى الكاب والذى أسماه « حسبما يقول البعض » برأس العواصف ؛ ولكن الملك جون ، عندما تكهن بأن الطريق الى الهند ســيكون فى قبضته ، أعاد تسميته « برأس الرجاء الصالح » . ولقد كان الملك محقا فى نظرته ، اذ سار فاسكو داجاما فى عام ١٤٩٧ خلف الكاب المسمى برأس ناتال » ، وزار موزامبيق وشق طريقه الى أن وصل الى الهنـــد .

وفى عام ١٥٠٣ وصل انطونيودى سالوانا خليج تيبل بالفعل ؛ وكلنا يعرف أن سفينته كانت أول سفينة ترقد تحت الجبل العظيم على الاطلاق وكان أول رجل أبيض بالتأكيد يتسلق الجبل ؛ وكان هو الذى سماه بجبل تيبل .

وفى عام ١٥٨٠ دار السير فرانسيس دريك حول الكاب ، ووصفه « بأجمل رأس فى كل أرجاء الأرض » وفى عام ١٦٢٠ نسب الكابتن شلنج وفتز هربرت الكاب الى الملك جيمس ، ولكن الملك رفض أن يوافق على ذلك .

وفى غضون ذلك آلت قوة البرتغال الى الزوال ؛ وفى عام ١٦٠٢ أسست شركة الهند الشرقية الهولندية لكى تقوم بأعمال التجارة مع بلاد الهند والشرق . وفى عام ١٦٥٢ وجدت الشركة من الضرورى أن تقيم محطة تموين فى الكاب ، حيث يمكن زراعة الخضر وذلك بمحاربة مرض الاسقربوط الفظيع وهناك يترك المريض للعناية به ويمكن البحارة المسافرون الى الشرق أن يتركوا خطاباتهم لكى تصل الى هولندا فى أول باخرة راحلة .

ولم يكن سكان الكاب الوطنيون كثيرى العدد . كانوا ينقسمون الى الهوتينتوف والبوشمن فأما الهوتينتوف فقد كانوا أناسا بدائيين يعملون بالرعى آثر بعضهم حياة الاستقرار الجديدة . اما كخدم أو كأناس يمدون السفن المارة باللحوم ، فى حين ابتعد البعض عن هؤلاء الدخلاء وشقوا طريقهم فى داخل القارة عن طريق الشمال والشمال الشرقى . وأما البوشمن فقد كانوا أكثر بدائية ، قصيرى القامة واشتهروا بالصيد بالسهام المسمومة . وهم يعيشون ــ عندما لا يستطيعون الحصول على اللحوم ــ على الفواكه البرية والحشرات ؛ والجذور . هوايتهم السطو على قطعان الآخرين ؛ وكما طاردوا الهوتينتوف فى

الماضى ؛ بدءوا الآن فى مطاردة قطعـــان الرجل الأبيض وممتلكاته الأخرى • وكانت حضارة الرجل الأبيض شديدة الغرابة بالنسبة لهم؛ حتى انهم لم يحاولوا أن يحتكوا بها• ومن ثم فقد كان مصيرهم القتل اثر هجماتهم ؛ مما دعاهم الى الانسحاب أكثر فأكثر الى كهـــوف الجبال • وكلما تقدم الرجل الأبيض ؛ تقهقروا أبعـــد من ذلك فى الصحراء واليوم يعيش نفر قليـل منهم فى كلهارى ، حيث تحميهم الحكومة البريطانية بطريقة تشبه الى درجة كبيرة حماية الحيوانات فى كروجر بارك •

لم تكن شركة الهند الشرقية الهولندية تهدف فى البـــداية لأن يصبح المقر الجديد مستعمرة • ومع ذلك فانها لم تفلح فى الزراعـــة لحسابها ؛ وفى عام ١٦٥٧ سمحت لتسعة من رجال المدينة أن يقوموا بالزراعة على نفقتهم فى مدينة ونديبوش ؛ ولكنها فرضت عليهم قيودا كثيرة مملة •

وقد ضاق هؤلاء الرجال ذرعا بحكم الشركة وبدءوا ينظرون اليها كسلطة غريبة لها مصالح تختلف عن مصـــالحهم ؛ وفى بعض الاحيان تتناقض معها وكلما ابتعدهؤلاء الرجال أكثر فأكثرعن مدينة الكاب ، ازداد وضوح هذا التناقض ، وأصبح عاملا متكررا فى الفترة التاريخية التى أعقبت ذلك •

وكانت الشركة تدفع أجورا ضئيلة لمن يعملون بالزراعة ؛ حتى

انها فى محاولتها تخفيض تكاليف الانتاج استوردت فى عام ١٦٥٨ أول دفعة التقليل من هذه الهجرة ؛ ولكنها لم تفلح . وقدجعلت هذه الحياة القاسية الطليقة من البوير أناسا يعتمدون على أنفسهم ولايطيقون اشراف أحد عليهم لانهم يعشقون حياة الاستقلال والحرية .

وكان هناك ـ حتى فى هذا الوقت المبكر ـ انقسام ملحوظ بين التريكبوير وسكان مدينة الكاب . وكانت الفئة الأولى تمثل سكان أفريقية ؛ والفئة الثانية هم الى درجة كبيرة من سكان أوربا ؛ أى الذين لايزالون يحتفظون الى درجة كبيرة بعادات أوربا . وقد غدا هذا الانقسام أكثر وضوحا بسبب الهجرة الكبرى التى حدثت فى عام ١٨٣٦ ؛ حتى أننا نتكلم الى يومنا هذا عن الاختلاف بين العادات الافريكانية فى كل من الكاب والترنسفال . ونحن نعنى بذلك ؛ من بين أشياء أخرى ، أن موقف الترنسفال تجاه قضية الجنس أكثر عزما وصلابة . وهاتان هما الصفتان اللتان تميزان ـ كما رأينا ـ طبيعة سهول « الكارو . وربما نلاحظ أيضا أن علاج هذا الانقسام بين الافريكانيين ؛ كان مرجعه للجهود التى قام بها فى الفترة الأخيرة رجال مثل « رودس وملنر » أعظم رجلين من بين كل هؤلاء الذين ساهموا فى خلق الوحدة الافريكانية .

كان من الممكن أن تؤدى حياة العزلة والوحشة الى النكسة وقد فعلت ذلك فى بعض الأحيان ؛ ولكن الدين كان له أثره الفعال بين الناس وبالرغم من أن الكنيسة ؛ مثلها مثل الشركة . قد لاقت صعوبة فى أن تظل على اتصال بالمهاجرين فقد كان الكتاب المقدس هو رفيقهم

الدائم ؛ وكانت قراءة الاسفار عند الصلاة من المستلزمات اليومية لحياة العائلة . وقد جذبتهم قصص البطارقة المهاجرين بوجه خاص ، أو كانت أكثر توافقا مع حياتهم التي تتسم بالقسوة والوحدة •

وأما بالنسبة للأرض نفسها ؛ برحبها واتساعها ـ بواحاتهـ الخضراء الرطبة التي تقوم وسط الحرارة والصخور والأشواك ، فقد وهبوا لها حبا يفوق الوصف • لكم كان الفرق شاسعا بينهم وبين أوربا • وكم كانت الهوة شاسعة بين سهول الكارو وبين أراضي هولندا التي تترقرق فيها جداول المياه ! لقد كان الحصان ، والسرج ، وقعقعة السلاح ، وقطعان البقر الوحشي التي تجري فوق الأراضي الممتدة ، والسهول المنبسطة ، والشمس المشرقة ، هي حياتهم الجديدة. ومع ذلك فلا يمكنك أن تجد أو تعثر على اشارة واحدة منها في كل الصور التي تشاهدها معلقة في منازل أمستردام •

في حوالى عام ١٧٧٠ كان هناك ما يزيد على ١٠٫٠٠٠ نسمة من البيض في الكاب ، وما يعادل ذلك تقريبا من العبيد • وكأن تسعة أعشار هؤلاء البيض من سكان المدن ؛ يعيش نصفهم في مدينة الكاب وفي الوديان الجميلة التي ترقد خلف منازل المدينة ، والنصف الآخر وهم التريكبوير الذين تحدثنا عنهم • وقد تبعثر الهوتينتوف والبوشمن قبل تقدمهم ، ولكنهم بدءوا الآن في مواجهة متاعب جديدة ؛ حيث زحفت قبائل البانتو ببطء صوب الجنوب ووقعت معركة ، تعتبر من الأحداث البارزة في تاريخ الافريكانيين • وقد حاول الحاكم فان بليتينبرج في عام ١٧٧٨ ـ بعد أن تشاور مع بعض زعماء قبائل

الأوسا الصغيرة ـ أن يحل المشكلة بإعلانه عن نهر السمك كحد للتوسع صوب الشمال . ولكن هذا الاتفاق قد فشل مثل كل اتفاق مماثل أتى بعد ذلك ؛ وذلك لأنه لم تكن هناك حكومة مركزية من السود للتعامل معها ، ولأن كلا من البوير والأوسا كانوا يملكون القطعان ، ومن ثم فقد كانوا يتعطشون الى الأراضى الجديدة . وبالرغم من أن رجال الأوسا لم تكن لديهم لغة للكتابة أو خبرة تكتيكية ؛ الا أنهم كانوا من المحاربين الأشداء ، وكانت لغتهم غنية ولديهم نظام واضح من القوانين والعادات . ومن المعتقد أنهم وصلوا الى ما يسمى اليوم بمقاطعة الكاب الشرقية فى أواخر عام ١٥٠٠ ؛ وأنهم لو وصلوا الى رأس الرجاء الصالح بطريق مباشر لما تعرض لهم البوير الآن .

ولقد ظلت الحدود التى رسمها فان بليتنبرج غير منيعة ؛ ومن ثم فقد كان الاشراف على الأراضى النائية خارجا عن نطاق الشركة المحدودة وقوة هولندا التى كانت فى طريقها الى الزوال . وكان الرجال يعبرون نهر السمك اما لسرقة الماشية أو لاستردادها ؛ أو للتبادل ؛ أو العمل ، أو الصيد ومن السهولة بمكان أن يستتبع عمل الفرد توريط الجماعة كلها . وكانت هناك باستمرار متاعب ؛ وغارات وسرقات ، وثأر . وكان يحدث فى بعض الأحيان أن يرجع الفلاح الى بيته من رحلته لكى يجد كل عائلته قد قتلت ؛ وأن منزله قد أحرق ؛ وأن ماشيته قد سرقت ، وما زالت الآثار البشعة لهذه الحوادث موجودة على حوائط بعض منازل الافريكانيين ، وهى تعيد

الى الأذهان ذكريات أيام العداء المرير بين السود والبيض • وقد أفلت زمام الموقف اذ طرد البوير الحاكم مينير لأنه كان يكابر في تطبيق حكم القانون • وفي عام ١٧٩٥ أقام البوير في منطقة جراف رينيت » حكومتهم الخاصة ؛ وتبعهم البوير في منطقة سويلينيدام بعد ذلك بأربعة أيام • وقد سادت البلبلة كل مناطق الحدود ؛ وأخذ البوير يترقبون الخلاص رويدا رويدا في أي مكان آخر الا في أنفسهم •

وهكذا أصبح الكفاح من أجل البقاء على أرض القـــارة التي تنذر بالخطر هوفكر التريكبوير الشاغل ؛ والهدف الرئيسي لحياتهم • لقد كان عداؤهم للرجل الأسود مريرا وقاسيا ، وكذلك كان عداء الرجل الأسود لهم • والعلاقة بين الرجال البيض والرجال السود ؛ وأكثر من ذلك أن العلاقة بين الرجال البيض والنساء السوداوات لايمكن الا أن تكون علاقة السيد والخادم ؛ أو العــدو والعـــدو • ويستطيع البويرى فقط أن يعيش في عزلة ؛ وفي التفرقة العنصرية فقط يتجســم ذلك الأمل ، ولأولاده ، ولجنســـه • وأكثر من ذلك • فان لغته المكتوبة ؛ وخبرته الفنية الممتازة ؛ وامتلاكه لأشياء مثل البنادق ؛ والعربات ؛ والانجيل قد أقنعته بالطبع بامتيازه على عدوه الوثني الذي يعبد الأصنام •

وفي سبتمبر عام ١٧٩٥ ؛ استولى الانجليز على الكاب ؛ وورثوا مشكلات الحدود وكان في المستعمرة في ذلك الوقت حوالى ١٦٫٠٠٠ نسمة من البيض وحوالى ١٧٫٠٠٠ من العبيد • وقد امتنعت «جراف

رينيت وسويلينيدام عن التسليم للحكومة الجديدة ، لأنهما لا تتوقعان منها أن تكون أفضل من سابقتها وقد منع القائد البريطانى البوير من تخطى الحدود . وهكذا بدأ القرن التاسع عشر الذى اتسم بالمتاعب؟. والذى كان الجنرال « سمطس » يسميه بقرن الخطأ .

الفصل الرابع

مقدم البريطانيين

كان قدوم البريطانيين الى الكاب فى عام ١٧٩٥ (وأخـيرا فى عام ١٨٠٦) هو الحدث العظيم الثانى فى التاريخ الأفريكانى . فلقد كان البريطانيون هم الذين فرقوا هذه الجهود المشتتة ، وهم الذين جمعوها مرة أخرى . ولايعنى ذلك أننا ننكر الدور الذى قام به الأفريكانيون فى تحديد مصيرهم ؟ ولكنا نؤكد الدور الذى قامت به بريطانيا كعامل خارجى .

ولقد قيل ان الأفريكانيـة لايمكن أن توجد دون وجود أعدائها ، وأن هؤلاء الأعداء كانوا اثنين من حيث العدد ، هما « البريطانيون والبانتو » ولئن كان هذا التعميم معيبـا ، فانه انما يحمل بين طياته الحقيقة الصادقة . فرجال جنوبى افريقية الذين يتحدثون الانجليزية يذعرون فى بعض الاحيان من أحاديث السياسيين الأفريكانيين ؟ الذين يكشفون فيهـا عن هيـكل الأمبريالية البريطانية ويقرعون عظامهـا وهو ما يؤدى فى الوقت نفسه الى رجفـة دم الناخبين وحرارته . وهنـاك من الدلائل مايشير الى أن الهيكل (النظـام) يفقد قوته وأن ثمة أعداء

آخرين من الخارج يأخذون مكانه مثل : الرأى العام العالمى والأمم المتحدة ، والشيوعية ، والمستر نهرو ، والامبريالية الأمريكية الحديثة والزنوج الانجليز ، والصحافة البريطانية ، والكنيسة الانجليزية . ومن صفات القومية الافريكانية أنها تحتاج الى هؤلاء الأعداء ، حتى ولو كانت لاترغب فى القيام بذلك .

وقد تبع وصول البريطانيين الى الكاب توسع عظيم فى نشاط الارساليات ، وكما يمكن أن نتوقع ، كان موقف الارساليات تجاه الهوتينتوف والأوسا لايشابه موقفهم تجاه الفلاحين ، فبالنسبة لهم كان هؤلاء السكان المحليون أرواحا يجب هدايتها الى طريق الخلاص . وأما الفلاحون فقد كانوا ينظرون الى الارساليات بدورهم كرجال يقومون بالتعليم والخدمات الاجتماعية التى لايهتمون بها كثيرا . ولو أنهم كانوا يهتمون فى بعض الاحيان بسعادتهم الروحية .

وكان موقف رجال الادارة البريطانيين — بالرغم من عدم مشابهته لموقف الارساليات — يختلف عن موقف مستوطنى المستعمرات . فبينما لم يقم رجال الادارة فى البداية بالحد من حقوق ملاك العبيد ، الا أنهم أيدوا حق الخدم والعبيد فى المعاملة الحسنة ، وقد شكلت المحاكم للنظر فيما اذا كانت هذه المعاملة تقدم أو لا . وكانت الدائرة السوداء المشهورة فى عام ١٨١٢ ، من النتائج المبكرة لهذا النظام ، حيث وجهت التهم الى عديد من الفلاحين البيض كنتيجة للشكاوى التى قدمها الملونون

ضدهم . ومن الممكن أن نقول أن ثمة فكرتين جديدتين قد دخلتا « الكاب » في هذا الوقت ؛ أو أن فكرتين قديمتين قد ظهرتا فجأة الى الوجود مرة أخرى ، وهما المساواة بين كل الرجال أمام الله ؛ والمساواة بين كل الرجال أمام القانون .

ومن ثم فقد عاش الموظفون من رجال الادارة ، ومستوطنو المستعمرات والارساليات فى علاقة ثلاثية يسودها الاضطراب . وكان على الموظفين أن يضعوا فى الاعتبار مشكلات الفلاحين ؛ وكان على الموظفين أيضا أن يضعوا فى الاعتبار المساندة القوية للارساليات فى انجلترا . وكانت هذه الارساليات ترسل التقارير الى انجلترا ، وكان بعضها عدائيا بالنسبة لمستوطنى المستعمرات

وبالمثل كانت روح مستوطنى المستعمرات عدائية بالنسبة للارساليات ؛ وقد توافد الهوتينتوف على مقر الارساليات ؛ حيث وجدوا الظروف أيسر من المزارع . وكان الزارعون ـ كما هو الحال دائما فى جنوبى افريقية ـ لايجدون العمل ، وكانوا يعتبرون أن الحمية الدينية لدى الهوتينتوف ليست الا من قبيل الادعاء . وقد غضبوا أيضا عندما تزوج المبشر فاندر « كمب » الذى كان مازال يافعا فتاة من الهوتينتوف كانت كل ماتملكه فراءان من فراء الأغنام ومسبحتان . لقد تغير الوقت الذى تزوجت فيه ايفا « ٤٧٥ » من الطبيب فان ميرهوف بعد موافقة الحاكم . فبهذا الزواج أساء القادم الجديد ، أو الاجنبى الى الفكرة الأفريكانية . وأكثر من ذلك ، لم يكن المستعمر يرى ما يسوغ

تعليم غير البيض لحياة لاتوجد ببساطة ، ولحياة لايصلحون فى نظره لها بأية حال من الاحوال .

وهنـــاك نقطة مهمـــة يجدر بنا أن نلاحظها هنا ؛ وهى أن معظم الارساليات كانت بريطانية . ولقد بقى هذا العداء ضد الارساليات فى جنوبى افريقية الى يومنا هذا ، وكان بلاريب من أهم البواعث خلف قرارتعليم البانتو الذى صدر عام١٩٥٤، والذى أنهى التعليـــم الارسالى كلية ، والــــذى رفض السماح للمعاهد الشهيرة مثل كلية آدمز ، وكلية هدلســـتون سان بيتر فى روز وكللية كلينيرتون أن تستمر فى رسالتها كمعاهد خاصة.

فى عام ١٨١٥ ؛ وفى ظل هذا الحكم البريطانى الجـــديد ؛ اشتكى خادم من الهوتينتوف من المعاملة التى لاقاها من سيده، فى دريك بزيودينهوف . وقد عامل بزيودينهوف رجال القضاء بازدراء ، فأرسل الحاكم ضابطا أوربيا على رأس ثلة من جنـــود الهوتينتوف لاعتقاله . لم يحدث قبل ذلك على الاطلاق أن أرســـل الهوتينتوف لاعتقـــال رجل أوربى . وقد لجأ بزيودينهـــوف الى محاربة الجمـــاعة من مغارة اختبأ بهـــا ؛ ولكنه قتل فى النهاية . وقد أقسم أخوه وهو يسير فى الجنازة أن يأخذ بثأره ؛ وثار هو وأصدقاؤه . وقد قمعت هذه الثورة فى الحال ، وقام اللـــورد شالز سومرست باعدام خمســـة منهم شنقا فى ميـــدان عام فى سلاجترنك . ولم يكن يعرف بوضوح رد فعل الفـــلاحين لهـــذا الحادث البشع ، ولكن الرجال الذين شنقوا ، قد نظر اليهم بعد

ذلك كشهداء ماتوا فى سبيل وقفة الافريكانيين ضد الحكومة البريطانية؛ والارساليات ومبدأ المساواة اللعين • وما يزال الافريكانيون يذكرون حادثة سلاجترنك الى يومنا هذا كاحدى الحوادث الأليمة التى ظهرت فى قرن الخطأ •

فى عام ١٨٢٠ وصلت أول جماعة كبيرة من المستعمرين الذين يتحدثون باللغة الانجليزية ، وكان عددهم حوالى ٥٠٠٠ رجل • وقد استقر معظمهم فى منطقة الحدود المضطربة ، وأسسوا مدن بورث اليزابيث وجراهافرتون وكان من نتائج قدومهم دفع الحكومة البريطانية للسعى فى « نجلزة » أفريقية الهولندية ؛ وقد حلت اللغة الانجليزية محل اللغة الهولندية كلغة رسمية واستبدلت بالدولارات الهولندية الجنيهات والشلنات والبنسات ؛ واقتصرت المدارس التى تساعدها الحكومة على تدريس الانجليزية واللاتينية • وقد أغضبت محاولة « النجلزة » هذه أفريقية الهولندية وما زال اسم اللورد شارلز سومرست الحاكم آن ذاك يذكر بالكراهية الى يومنا هذا •

وثمة حادث آخر وقع فى هذه الفترة ؛ وهو تمرير القانون رقم ٥٠ ، والذى كفل الحقوق المدنية للملونين • وقد أغضب هذا الاتجاه نحو المساواة الفلاحين أيضا • فقد رأوا ضعف نفوذ السلطة على الهوتينتوف ، وخافوا من زيادة التشرد والبطالة •

ثم وقع حادث مهم آخر فى هذه الفترة ، وهو الأمر بتحرير أو اعتاق ۸۰۰٫۰۰۰ رجل من العبيد بوساطة الامبراطورية البريطانية . وكان يجب دفع تعويض قيمته ۱٫۲٥۰٫۰۰۰ جنيه استرلينى ، عن عبيد جنوبى افريقية ، الذين تبلغ قيمتهم ۲٫۸۰۰٫۰۰۰ جنيه استرلينى ، وذلك فى لندن . وقد زار التجار المتضاربون المزارع واشتروا طلباتهم بخصم كبير .

وفى النهاية وقعت حرب الحدود السادسة فى عام ١٨٣٤ . لقد تدفق الأوسا عبر الحدود ، وشرعوا فى التحريق والتخريب والقتل . وقد عين الحاكم ـ السير بنيامين ديربان حدا جديدا هو نهر الكى وهو أبعد بثمانين ميلا أخرى تجاه الشمال . وأعلن مقاطعة الملكة أدليو ، وقدم حمايته للجميع .

وبينما كان الفلاحون ـ الذين كانوا يتعطشون لضم أراض جديدة ـ يهنئون أنفسهم بالحاكم الجديد ، نقضت الحكومة البريطانية سياسته وأرجعت الحدود الى ما كانت عليه عند نهر السمك ، وأعلنت أن « لدى أهالى جنوبى افريقية مسوغا كافيا » للحرب .

كانت هذه هى الانتفاضة الأخيرة للفلاحين . فقد حصلوا على مايكفيهم من الحكومة البريطانية ، والارساليات البريطانية والرأى العام البريطانى وقد منح الهوتينتوف حقوقهم ، وحرر العبيد ، وعومل السود مثل البيض . وهكذا فقد شرعوا

أفواجا أفواجا فى الهجرة الكبرى فى عام ١٨٣٦ وساروا صوب الشمال وتسلقوا الجبال التى ترقد فوق السهل الداخلى العظيم ، وعبروا نهر الأورانج الى الأراضى الخضراء التى فى تجاه كمبرلس وبلومفونتين وجوهانسبرج وبريتوريا ، وساروا شرقا عبر دراكنز برج الى ناتال حيث سمى رجال الارساليات المستعمرة التجارية الصغيرة التى عند بورت ناتال باسم ذيربان . وكان من بين المهاجرين المثيرين - والذين قدر عددهم بما يزيد على ٥٠٠٠ رجل - غلام - صغير فى سن العاشرة . هو بول كروجر الذى قاد جمهورية الترنسفال بعد ذلك بستة وثلاثين عاما ضد بريطانيا ، فى الحرب التى نشبت بين البوير والانجليز .

اننا سنحرر هذه المستعمرة، هذا هو ما كتبه «بيترريتيف» بعد الضمانات الكاملة بأن الحكومة البريطانية لن تطلب منا أزيد من ذلك ، وأنها سوف تسمح لنا بأن نحكم أنفسنا دون أى تدخل منها فى المستقبل ، ولقد شاهد جيران ريتينيف الانجليز (حيث كانت منطقة الحدود تتحدث بالانجليزية الى درجة كبيرة) . شاهدوه وهو يمضى بأسى ، وقدموا اليه نسخة من الانجيل لكى يبدأ فى رحلته .

ولسوف نرى أنه كانت هناك أسباب متعددة للهجرة الكبرى . أحدها هو التعطش الى الأراضى بدون شك ؟ والتى كانت تسبغ على الدوام منذ عام ١٦٥٢ .

لم يسبق الهجرة الكبرى «بالرغم من أنها كانت تلقائية» رحلات تمهيدية قام بها المكتشفون فى داخل القارة . ولكن السبب الأعمق للهجرة بدون شك ؛ هو عدم توافق الحكومة البريطانية مع البوير الأفريكانيين ، وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بوجهة نظر كل منهم فى مسألة الجنس واللون التى يدور حولها النزاع . وحتى اليوم لا يستاء الافريكانى — وفى الحقيقة معظم البيض فى جنوبى افريقية — أكثر مما يستاءون من أن تنتقد سياستهم الخاصة بالجنس بوساطة الأوربيين أو الامريكيين ، انهم يخبرون الناقد ، انه لم يعش فى القطر ؛ واذا ما كان هذا الناقد انجليزيا ، أو من رجال الارساليات ، أو انجليكانيا ، فانهم يستنكرون نقده أكثر من ذلك . وفى بعض الأحيان يمتد هذا الاستياء ليشمل رجال جنوبى افريقية الذين يتحدثون الانجليزية ، والذين لم يكونوا فى القطر منذ ثلاثمائة عام ، ولو أن هذه الحجة قد بطل استعمالها بعد أن وصل الدكتور فيرووردد — نائب المستر ستريجدوم ، الى مركزه الحالى الذى يتسم بالدكتاتورية المطلقة ، وذلك لأن الدكتور فيرووردد قد ولد فى أوربا وكان عمره سنتين عندما نزح والده الى جنوبى افريقية .

لقد كتبت امرأة تدعى آناستينكابن أخت بيترزيتيف — بمايبدو فى نظرى من أكثر التقارير أهمية فى موضوع الهجرة الكبرى . انها تقول :

« انها الاجراءات المخجلة والجائرة التي تتعلق بتحرير عبيدنا ، ومع ذلك فلم يكن تحريرهم هو الذى دفعنا بدرجة كبيرة الى هذا الطريق ، مثلما دفعنا الى ذلك وضعهم على قدم المساواة مع المسيحيين ، مخالفين بذلك شريعة الله والفروق الطبيعية فى الجنس واللون ، حتى أصبح من غير المحتمل بالنسبة لأى مسيحى معتدل أن ينحنى أمام هذه العبودية ؟ ومن أجل ذلك فقد انسحبنا من أجل المحافظة على سلامة عقائدنا .

هنا كان بيترزيتيف ؛ رجلا مستقيما ومحترما ، لا تنقصه العزيمة أو الشجاعة . ولكن فكرة الاحرار عن المجتمع المشترك الذى يعيش فيه البيض مع السود كانت بالنسبة له فكرة طائشة ؛ والأكثر من ذلك ؛ انها سوف تظل كذلك . فبالنسبة له ، وكذلك الحال بالنسبة لأخته ، كانت هنالك فروق طبيعية فى الجنس واللون . ومن الممكن أن تقول ان الجنس بالنسبة له كان جنسا ثابتا ؛ ولذلك فقد كانت التفرقة العنصرية بالنسبة له فضيلة ، ودينا ، وفلسفة ، وسياسة . ومن الضرورى أن نفهم ذلك اذا ما أردنا أن نفهم جنوبى افريقية فى أيامنا هذه .

لقد كان عملا جريئا من جانب الفاستربهير عندما استغلوا معرفتهم التامة بالصفات الحربية للقبائل الافريقية لكى يواصلوا تقدمهم الى الداخل ولكن هنالك عاملين سهلا لهما ذلك ، الاول هو تكتيكهم المتفوق ؛ أى بنادقهم والآخر هو حالة البلبلة فى

الداخل ، وذلك نظرا لان شاكا ـ ملك الزولو الذى كان شغوفا بالحرب ـ قد جعل القبيلة تلو القبيلة ، والجماعة بعد الجماعة ، تهرب منه ومن بعضها ، وتسير فى اتجاهات تشع من منطقة زولولاند مثل فرامل العجلة ؛ ويؤثرون فى الحياة الأفريقية لغاية نياسالاند فى الشمال .

وقد خلف شاكادنجال ؛ وعندما عبر ريتيفى منحدر دراكنزبرج ووصل ناتال ترك قليلا من الرجال وكل النساء والاطفال فى الخيام ، وسار هو وستون رجلا من أتباعه لكى يرى ملك الترولو فيعقد إتفاقية معه . وقد ذبح الملك ريتيف وجماعته ، وأرسل على الفور عشرة آلاف من المحاربين الاشداء الى الخيام ليقتلوا كل من فيها ؛ فى مكان سمى « وينين » فيما بعد ، وذلك يعنى البكاء وقد وجد المهاجرون قائدا جديدا فى شخص أندرايس بريتور ـ والذى سميت بريتوريا باسمه . وفى ١٦ من ديسمبر عام ١٩٣٨ ـ بعد أن نذر الى الله أن يجعل اليوم مقدسا اذا ما جعل النصر حليفهم ـ قهر بريتور جيوش دنجان فى معركة نهر الدم . ويقال ان ثلاثة من البوير فقط قد أصيبوا بجراح طفيفة ، وان ثلاثة آلاف رجل من الزولو قد أريقت دماؤهم .

ومن ثم فقد سمى يوم ١٦ من ديسمبر بيوم دنجان لفترة تربو على المائة عام وقد تغير اسمه حديثا فقط الى يوم « العهد أو يوم الميثاق » . ويعتبره الكثير من الافريكانيين مناسبة

دينية ، وليس الامر كذلك بالنسبة لهؤلاء الذين يتحدثون اللغة الانجليزية فى جنوبى افريقية ، ولا بالنسبة للقانون ، وفى هـذا اليوم يعقدون اجتماعات للأجناس ويلعبون الكريكت • ومن العدل أن نقول ان يوم الميثاق هذا لا يعنى الا القليل بالنسبة لمواطنى جنوبى أفريقيـة الذين يتحدثون الانجـليزية • ولـكنه بالنسبة للافريقى ، للرجـل الاسـود يعنى الكثير ، أنه يعنى الاساءة ، وليس ذلك من المستغرب فى الحقيقة ، فهؤلاء الذين يتحدثون الأفريكانية غالبا ما ينعمون النظر فى هـذا اليوم فى عداوات الماضى الأليمة والحاجة للاستمرار فى ذلك المستقبل • ولايوجد الشيء الذىيستطيع أن يبين بوضوح أكثر الانقسامات القطيعة فى جنوبى أفريقية أكثر من هذا اليوم •

وفى ١٦ من ديسمبر سنة ١٩٣٨ ـ أى بعد مرور مائة عام على معركة نهر الدم ـ وضع حجر الاساس للنصب التـذكارى فانترهيبينز والذى ينتصب الآن فى مكان مرتفع على احـدى هضاب بريتوريا • وقد شيـد النصب لكى يعيـد الى الأذهان ذكرى الصراع أو النضـال الذى قامت به المسيحية ضد البربرية وهذا يعنى بوضوح ، صراع فاسترهيبلر ضد الافريقيين •

الفصل الخامس

قرن الخطـــــأ

لقد كانت معركة نهر الدم حدثا حاسما . فقد سقط داخل جنوبى أفريقية تحت قبضة المعتدين ؛ ولو أن ذلك لم يحدث الا بعد صراع عنيف . وقد صمم موسيس على أن يبقى باسوتولاند أرضا حـرة ولكنه وضعها فى عام ١٨٦٤ تحت حماية الملكة . وفى سنة ١٨٨٥ أتت بتشوانالاند تحت الحماية نفسها ؛ ولكن مركز سوازيلاند ظل غامضا الى عام ١٩٠٣ ؛ عندما أصبحت هى الاخرى تحت حماية بريطانيـا .

هذه هى الاقطار الثلاثة التى غالبـا ما يشار اليها بالمحميات ؛ والتى كانت حكومة جنوبى أفريقية ترغب فى أن تضمهـــا الى الاتحاد ؛ ولكن بريطانيا كانت ترفض ذلك دائما والى الآن ، وهى فى الحقيقة تنوى أن نفرض عمـــا قريب نوعا معدلا من حكومة مسئولة فى بسوتولاند .

وفى سنة ١٨٥٣ منحت مستعمرة الكاب حكومة نيابية ؛ وحق الانتخاب لجميع الاجانب . وفى عام ١٨٥٢ بعد اتفاق نهر الرمل أكدت بريطانيا للترنسفال انها لن تتدخل فى شئونها . وفى سنة ١٨٥٤ ؛ بعد

اتفاق بلومفوتين • أعطت لمقاطعة الاورانج الحرة تأكيدا مشابها •ومن المهم أن نذكر أن جمهورية جنوبى افريقية « ليست مقاطعة الترنسفال المستقلة في ذلك الوقت » قد وضع لها دستور لا يعترف « بالمساواة فى الكنيسة أو الدولة •

وقد أسس أيضا جمهورية ناتال فى عام ١٨٣٨ ؛ ولكنها كانت قصيرة الامد • وقد نشط التجار الانجليز والارساليات فى خليج ديربان وعلى طول شاطىء ناتال منذ عام ١٨٢٤ ؛ وحصلوا فى الحقيقة على قطعة من الارض من شاكا ملك الزولو قبل أن يغتاله الدنجان ؛ ومع ذلك فلم تتحرك الحكومة البريطانية للاعتراف بهذه المستعمرة الى أن أرسلت جمهورية البوير في سنة ١٨٤١ حملة تأديبية لقبائل البكاس التى تقطن الجنوب لأنها استولت على بعض قطعان المواشى ؛ وقد حاصر البوير الانجليز فى ديربان وسار الملك ديك سيرته المشهورة وقطع ٦٠٠ ميل حتى وصل الى اجراهامتون بعد عشرة أيام عبر قطر موحش مجهول لكى يطلب المدد•وكنتيجة لهذه الاحداث ارتد غالبية الانجليز الى ناتال والتى أصبحت كنتيجة لهذه الهجرة ؛ المقاطعة التى تحوى غالبية من يتحدثون باللغة الانجليزية ؛ وذلك اذا ما اعتبرنا سكانها البيض • وفيما عدا ذلك فانها كانت وما زالت تتحدث الزولو الى درجة كبيرة ويعتبر الملك ديك بطلا اليوم ؛ ويقف تمثاله فى ميدان فسيح فى ديربان •

وفى عام ١٨٥٦ أصبحت ناتال مستعمرة بريطانية ؛ ومنحت

في البداية أيضا حق الانتخاب لجميع الاجناس . وفي ناتال والترنسفال ؛ ومقاطعة أورانج الحرة تغلب الرجل الأبيض بفضل قوته وسلاحه على رجال القبائل ؛ وسمح لكثير منهم بأن يستقروا في مزارعه وكون مناطق تسمى الوديان للآخرين وتكون هذه الوديان حوالى ١٣ ٪ من مجموع مساحة الاراضي في جنوبي افريقية اليوم ؛ في حين يكون الافريقيون حوالى ٦٦٪ من مجموع السكان.

لقد عرف اليوم أن سياسة الوديان انما كانت تحركها مشاعر الترفع ولكن لن يضيرنا أن نعترف بها كسياسة المنتصر ؛ سياسة فرق واحكم ؛ فهي تقدم للمهزوم حياة محدودة في منطقة محدودة؛ وتشجعه على أن يخرج من واديه الى عمله ؛ وتعرضه في المدينة لكثير من النظم المقيدة ؛ التي يتصف بعضها بعدم الرحمة . لقد كان الافريقيون يعيشون في المدن والقرى في مناطق وكذلك فقد كانت القوانين التي تنظم حياتهم عرضة للانتهاك . وقد تألم ضمير الرجل الابيض في جنوبي افريقية من قذارة سياسة مناطق السود في السنين الاخيرة فقط ؛ وبذل المزيد من أجل تحسن الظروف المادية للسود في ظل الحكومة الوطنية الحالية ؛ أكثر ما عمل في ظل أية حكومة أخرى . ولكن ما زالت القوانين اللعينة باقية .

وعلى العموم ؛ فقد بدأت العلاقات بين بريطانيا والبوير تسير في طريق التحسن بعد الهجرة الكبرى ؛ وربما كان مقدرا لها أن تسير في هذا الطريق مالم يكن التاجر أورلى قد رأى « حجر نهر الأورانج الجميل» في منزل المستر فان نيكيرك في عام ١٨٦٦ »

فى المنطقة الصحراوية بالقرب من كمبرلى وقد طالبت جمهورية البوير فى مقاطعة الأورانج الحرة بهذه المنطقة ؛ طبقا لاتفاق بلومفونتين الذى عقد سنة ١٨٥٤ ؛ والذى بوساطته ضمنت الحكومة البريطانية استقلال القطر فيما بين الأورانج والفال •

ولكن الرئيس دوتر بوير طالب أيضا بهذه المنطقة ؛ وعندما لجأ الى بريطانيا طلبا للحماية قامت بضم مقاطعته • وفى سنة ١٨٨٦ دفعت الحكومة البريطانية لمقاطعة الأورانج الحرة تعويضا قيمتـــه ٩٠،٠٠٠ جنيه استرلينى •

وفى أثناء ذلك أفلست جمهورية البوير الاخرى ـ الترنسفال ـ تقريبا وقد هدد ذلك بمتاعب خطيرة فى وادى سكهكهنلاند الكبير ولهذا السبب ومن أجل توحيد جنوبى افريقية تحت راية الاتحاد ؛ قامت بريطانيا بضم الترنسفال فى سنة ١٨٧٧ ولم يبعث ذلك روح العداء لدى الجمهوريين فقط ؛ ولكن أيضا لدى كثيرين من الأفريكانيين الذين تخلفوا فى مستعمرة الكاب • وقد قامت الحكومة البريطانية ببطء وثبات بتوحيد هذه الفكرة فى كل مكان فى جنوبى أفريقية ؛ وفى هذا الوقت بالفعل تقريبا بدأ استعمال اسم الافريكانى كشىء مختلف عن سكان كل من الترنسفال ؛ والمقاطعة الحرة ومستعمرة الكاب • وبدأ يلوح للبوير أن الامبراطورية البريطانية بالرغم من اتفاقية بلومفونتين ونهر الرمل • كانت عازمة على التهام الجمهوريات ؛ حتى أصبح الشعور المعـــادى للحكومة يتحول بشكل أكثر تحديدا الى شعـــور معاد للبريطانيين •

وفى سنة ١٨٨٠ نهض نواب الترنسفال ؛ وهزم البريطانيون هزيمة نكراء فى ماجوبا ؛ وهذا حدث آخر سيظل باسما فى ذاكرة الأفريكانيين الى الأبد • وفى عام ١٨٨٦ انتهت الحرب بدون انتصار ؛ وأعيد الحكم الذاتى الى الترنسفال ، ولكنها بقيت تابعة لسيادة الملكة فى الشئون الخارجية • وظهرت هنالك رغبة عارمة للاستقلال الكامل ؛ وتحمست هذه الرغبة فى شخص بول كروجر ؛ الذى تقلد الرياسة فى سنة ١٨٨٣ •

وكان الحدث العظيم التالى فى جنوبى أفريقية هو اكتشاف الذهب فى ويتووترسراند فى سنة ١٨٨٦ • كان سيسل رودس يشرف على مناجم الماس من قبل وأصبح مليونيرا الآن ؛ ونمت لديه أحلام عظيمة فى أن يسيطر نفوذ بريطانيا على الطريق من الكاب الى القاهرة وعن توحيد جنوبى إفريقية تحت علم الاتحاد • ولكن كروجر وقف فى طريقه ؛ ومن ثم فقد فكر رودس فى أن يضيق الخناق على جمهورية الترنسفال • وقد أصبح رودس رئيسا للوزراء فى مستعمرة الكاب • وحصل على اقليم بتشوانالاند البريطانية (ويجب ألا نخلط بين هذا الاقليم وبين محمية بتشوانالاند) وأسس دولة روديسيا الجديدة • وهكذا فقد حصر كروجر بين موزمبيق من ناحية الشرق وناتال من ناحية الجنوب •

ثم أدار رودس انتباهه صوب ديتروترسراند نفسها ؛ حيث كانت له مصالح مالية كبيرة من قبل • وقد تدفق آلاف المهاجرين الى

جوهانسبرج ؛ وسماهم البوير بالاجانب • وقد غير كروجر من الصفات الانتخابية ؛ لكى يمنع المهاجرين من الوصول الى الحكم • وحدث هناك سخط بالغ ؛ فأراد رودس استغلال هذه الفرصة • وفى سنة ١٨٩٥ دخل صديقه جاميسون الترنسفال ومعه خمسمائة من الرجال المسلحين ؛ وسميت هذه الواقعة بحملة جاميسون الشهيرة . لم تصلح الحملة فى استثارة الاجانب ؛ وتبرأت الحكومة البريطانية من المعتدين واستسلم جاميسون لكرونجى بشكل مشين • وقد سلم كروجر • برغم معارضة بعض مستشاريه الفريق بأكمله الى السلطات البريطانية لكى ينال جزاءه •

كانت هذه الواقعة نهاية لنفوذ سيسل رودس فى جنوبى افريقية لقد كان رجلا يحمل أفكارا عظيمة ؛ فقد حكم كمبرلس وهو فى السابعة والعشرين من عمره ؛ وبنى منازل عظيمة ؛ وأصبح رئيسا للوزراء وسمى قطرا باسمه . لقد توقع رودس من قبل وفاته أن يذكر اسمه لمدة أربعة آلاف عام ؛ ولكنه اسم يذكر على وجه الخصوص ـ فيما عدا المناسبات الرسمية فى روديسيا ـ ويقرن بالضرر البالغ الذى مس العلاقات الانجلو ـ أفريكانية •

لقد شجع فشل الحملة كروجر على أن يتخذ موقفا حازما مع الاجانب • ولكن الحكومة البريطانية أرسلت «الفريد» مندوبها السامى الذى فاق رودس فى القسوة والبرود ـ والذى سمى باللورد ملنر فيما بعد • وعليه تقع تبعة الحرب التى دارت بين البوير والانجليز •

وفى اكتوبر سنة ١٨٩٩ أعلنت الجمهوريات الحرب على بريطانيا وقد سميت هذه الحرب « بحرب الجنتلمان » اذ كانت خالية من الوحشية والفظاعة، وقد اتبعت القيادة البريطانية سياسة الارض الملتهبة فقامت باشعال النار فى المزارع ؛ وحصرت النساء والاطفال فى الخيم؛ حيث مات منهم ما يزيد على ٢٠٫٠٠٠ فرد ؛ وذلك لسوء الأحوال الصحية . وهذا حدث مفجع آخر من أحداث قرن الخطأ التى ما تزال تذكر الى يومنا هذا ؛ والتى لن تمحى من الذاكرة على الاطلاق .

لم يكن مقدرا لهذه الحرب أن تنتهى الا بطريقة واحدة وفى ٣١ مايو عام ١٩٠٢ وقعت معاهدة فيرينجنج وأصبحت جمهوريتا الاورنج الحرة والترنسفال مستعمرتين بريطانيتين ؛ وتسمى الاولى الآن بمستعمرة نهر الاورانج ومن ثم فقد قرب ذلك من توحيد المستعمرات البريطانية الاربع .

الفصل السادس

يقظه الافريكانيين

كانت هناك بعد الحرب التى دارت بين البوير والانجليز فترة من البناء النشيطة قام فيها حاكم المستعمرتين الجديدتين اللورد ملنر ـ بدور بارز يستحق الاعجاب، ولكنه كان مستبدا، وقبل الفكرة السخيفة وهى نجلزة البوير ؛ أى اكسابهم الصفات الانجليزية . ولحسن الحظ كان هناك رجال عقلاء فى بريطانيا وجنوبى أفريقية فى ذلك الوقت ففى عام ١٩٠٥ أمسك كامبل باترمان وحزب الاحرار بمقاليد السلطة فى بريطانيا ، وفى عام ١٩٠٦ أرجع الحكم الذاتى الى اقليم الترنسفال، وفى عام ١٩٠٧ أرجعه الى مستعمرة نهر الاورانج . وكان الجنرال لويس بوثا هو أول رئيس للوزراء فى اقليم الترنسفال ؛ والجنرال سمطس نائبا له ؛ وكلاهما من البوير . وكان أول رئيس للوزراء فى مستعمرة أورانج الحرة هو المستر ابراهام فيشر وكان الجنرال هوتزوج البويرى نائبا له . وكانت اللغة الانجليزية هى اللغة الرسمية ؛ وأما الهولندية فمن الممكن استعمالها فى المحادثات . وكان حق التصويت مقصورا على البالغين من الأوروبيين الذكور فى هاتين المستعمرتين.

لقد ميزت هذه الاحداث نهاية الامبرالية البريطانية . وكذلك

فقد ميزت النهاية المقتربة للعصر الاستعماری وبداية عصر التحرر والمتاعب ؛ الذی لم يصل الى نهايته بعد .

وفی عام ١٩١٠ كونت هذه المستعمرات الاربع اتحاد جنوبی أفريقية وكان الجنرال لويس بوتا هو أول رئيس للوزراء ؛ وظهرت فی الأفق روح الوفاق العنصری . وتساوت اللغتان الانجليزية والهولندية . وعمت القطر موجة من التفاؤل . كان فی رأس الرجاء الصالح - الذی حصل على الحكم الذاتی فی عام ١٨٥٣ - حق الانتخاب لكل الفئات على أساس غير عنصری ؛ وبضعة ألوف من ناخبی الكاب الملونين والافريقيين ؛ وكان هذا الحق مصونا ؛ ولكنه لم يكن ليمتد الى مقاطعات الاتحاد الثلاث الاخرى . وزيادة على ذلك ؛ كان من الممكن تغيير ذلك بوساطة أغلبية الثلثين لكل من المجلسين معا . ولم تكن هذه الظروف مصونة ؛ بوساطة تدخل الحكومة البريطانية ؛ كما يفترض كثير من المواطنين الافريكانيين اليوم ؛ ولكن بوساطة ممثلی مستعمرة الكاب أنفسهم . ولقد اتفقت المستعمرات الأربع أنه مهما كانت الحقوق الانتخابية لغير البيض ؛ فلا يمكن انتخاب أی شخص غير أبيض لأی من مجلسی البرلمان .

ولكن بالرغم من الحديث الكثير عن الأخوة والوفاق بين أجناس البيض فقد كانت هناك أعداد كبيرة من الوطنيين الافريكانيين لم يكن لها شأن بذلك . لقد كانوا قريبين جدا من أحداث قرن الخطأ . لقد رحبوا باعتراف الهولنديين ولكنهم كانوا يريدون أكثر من اعتراف الافريكانيين . وقد كانوا أمناء على كل شیء يخصهم ؛ لأنهم يعرفون

مخاطر أى ثقافة أجنبية ؛ لأنه لم يكن هنـاك أفريكانيون فى الكاب أصبحوا اكثر نجلزة من الانجليز انفسهم ؛ زيادة على ذلك فقد أصروا على تعليم أولادهم فى مدارس أفريكانية متوسطة، وأقاموا جامعات أفريكانية متوسطة للشباب من الرجال والنساء .

لقد عملت القـومية الافريكانية بشجـاعة وصراحة من أجل التفوق السياسى وبعد كل ذلك ؛ فقد زاد عدد الافريكانيين على هؤلاء الذين ينطقون اللغة الانجليزية فى جنوبى افريقية ؛ اذا ما أمكن جعلهم وطنيين فحسب ؛ واذا ما أمكنهم استعمال الحق الذى قدم لهم بنجاح ثم اذا ما أمكنهم اعادة بناء مجتمعهم الخـاص بدلا من أن يخـدعوا بالكلمات البراقة ؛ وعندئذ سوف لا يحصلون فى يوم ما على جمهورياتهم القديمة وحدها ؛ ولكن من الممكن أن يقيموا جمهورية جنـوبى أفريقية الجديدة . وسوف تنتصر الافريكانية ؛ وسوف يصبح جنوبى أفريقية بحق ملكا لهؤلاء الذين عانوا المتاعب كثيرا من أجله .

لقـد عزم الوطنيون الآن على انجـاز هذه المهمة . ففى عام ١٩١٢ انشق الجنرال هرتزوج على الجنرال بوثا وكون الحزب الوطنى الذى كان صغيرا . وفى عام ١٩١٤ قامت الحرب العالمية الأولى وزج الجنرال بوثا بجنوبى أفريقية فى الحرب الى جانب بريطانيا . ولكن كثيرا من رجال جنوبى أفريقية الذين يتحدثون الأفريكانيـة لم يكن لهم ما يعنيهم فى حرب يخوضها « الانجليز » . وقد ثار بعضهم وأعدم أحدهم ويدعى جوبس فورى واعتبر خائنا ؛ وانضم هـو أيضا الى قائمة شهداء سلاجتر نك .

وفى عام ١٩٢٤ ـ أمسك الوطنيون بمقاليد الحكم تحت قيادة الجنرال هرتزوج ؛ وبمساعدة حزب العمال الصغير الذى كان معظم أفراده ينطقون الانجليزية الى درجة كبيرة • وكان من قراراتهم الاولى مساواة الافريكانيين بالانجليزية • وثمت مهمة أخرى هى التخلص من علم الاتحاد الكريه ؛ وتصميم علم خاص بهم ؛ وقد عارض رجال جنوبى أفريقية الذين ينطقون الانجليزية ذلك بصرامة ثم أسفر الاتفاق عن العلم الحالى ؛ وهو علم الأورانج ؛ الذى يوجد على الجزء الأوسط منه ثلاثة أعلام صغيرة ـ هى صورة طبق الاصل لعلم الاتحاد وعلمى الجمهوريتين• وقد نعتها الدكتور مالان «بالقشرة التى تعلو الجراح » ؛ والتى لا تفتأ أن تسقط فى يوم ما • وقد وقع حادث مهم آخر عندما وافق البرلمان البريطانى على دستورو ستمنستر فى عام ١٩٣١ ؛ والذى أقر المساواة المطلقة بين كل المستعمرات التى توجد داخل اطار الكومنولث ؛ والتى كانت ترتبط بولائها المشترك للتاج فقط • ومن ثم فقد أصبح جنوبى أفريقية ندا لبريطانيا •

وقد استراح هؤلاء الناطقون باللغة الانجليزية ؛ والذين أيدوا سمطس بكل قواهم ؛ بعد موت بوثا ؛ عندما اتحد هرتزوج وسمطس فى عام ١٩٣٣ لتكوين الحزب المتحد ؛ ولكن نفرا قليلا من الوطنيين انفصل مرة أخرى تحت قيادة الدكتور مالان هذه المرة •

وفى عام ١٩٣٦ حصل هرتزوج فى جلسة مشتركة على أغلبية الثلثين اللازمة لتحويل كل الناخبين الافريقيين الى قائمة منفصلة ـ وقد عارض هذا التغيير ١١ نائبا من ١٩٠ ؛ وكان يقودهم هوفماير •

وفى عام ١٩٣٩ وقعت الحـرب العالمية الثـانية ؛ واتسعت هوة الخلاف بين هرتزوج وسمطس ؛ ولكن سمطس الذى حصل على الاغلبية بثلاثة عشر صوتا قاد جنوبى أفريقية مرة أخرى الى الحرب فى صف بريطانيا العظمى • وقد اتحد هرتزوج مرة أخرى مع مالان والوطنيين ؛ ولكنه ما لبث أن مات بعد ذلك • لم يكن هناك أى تمرد وانضم كثير من الافريكانيين الى جانب انجلترا ؛ وانصب عمل الهولنديين حول اصلاح الكنائس ؛ ولكن يد الاصلاح لم تمتد الى ثقافة المجتمع الافريكانى ؛ ومدارس المرحلة المتوسطة الافريكانية ؛ وجامعـات ••• ستيلينبوشن ؛ وبلومفونتين ؛ وبوتشيفستروم ؛ وبريتوريا •

ولقد خرج سمطس من الحرب مكللا بأكاليل النصر هو وحزبه المتحد ـ ولكنه هزم فى انتخابات سنة ١٩٤٨ بوساطة الدكتور مالان وحزبه الوطنى وكانت هذه هى أول حكومة فى جنوب أفريقية كل أعضائها من الأفريكانيين فقط ؛ وقد حصلت على معظم المقاعد •

كيف أتى الوطنيون الى الحكم فى النهاية ؟ ومن أتى بهم ؟ مما لاشك فيـه مع بعض الاستثناءات أنهم أتوا الى الحـكم عـلى أكتاف الافريكانيين • ولم يحدث فى تاريخ جمهرة الافريكانيين الطـويل بدون شك أن فكروا بعقل رجل واحد ؛ وبعد أربعين عاما من الاتحاد ؛ قل فيها العراك والحرب والعنف لم يكن الانقسام واضـحا بين من ينطقون باللغة الانجليزية وبين من ينطقـون باللغة الافريكانية من جنوبى أفريقية مثلما هو واضح الآن •

ثم لماذا أتى الوطنيون الى الحكم ؟ مما لا شك فيه أنهم أتوا لأنهم

وعدوا بحل مشكلات الاتحاد العنصرية في حرب البوير التقليدية ؛ بوساطة التفرقة أو الأبارثيد ؛ أي بالفصل بين الاجناس في المدارس والجامعات ؛ والمناطق السكنية ؛ والوظائف والاعمال - والقطارات - والأتوبيسات ؛ والمكتبات والمنتديات .. الخ . وأخيرا فقد أتيح للأفريكانيين فرصة لتصحيح الدورة الخاطئة التي دارها التاريخ عندما أتى البريطانيون وارسالياتهم الى الكاب ولاعادة توكيد سيادة الرجل الأبيض . وقد نص دستور جمهورية الترنسفل على « عدم المساواة في الكنيسة أو الدولة » .

كان من صيحات انتخابات عام ١٩٤٨ المطالبة بالقضاء على هوفماير فقد كان هو الذي عارض ابعاد الناخبين الأفريقيين الى قائمة منفصلة وكان هو الذي عارض محاولات سمطس لتحديد أقامة الهنود في مناطق معينة ؛ ثم كان هو الذي يصر دائما على المساواة بين كل الرجال في الحقوق السياسية . وقد مات الرجل في ٣ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ؛ ولم يستطع أي رجل في جنوبي أفريقية أن يكتشف بوضوح مدى القسوة التي سيسير عليها الوطنيون في تنفيذ سياستهم ؛ سياسة التفرقة العنصرية .

لقد مر العام الاول بهدوء نسبيا . ولقد ألغى التمثيل البرلماني الذي منح حديثا للهنود . وفرضت القيود على الهجرة ؛ لأن المهاجرين كانوا ينحازون للحزب المتحد . وقد وصف مالان الامم المتحدة بأنها تهدد الاستقلال والحرية ؛ وتوعد بأن يترك المنظمة عن أن يترك مقاطعة جنوب غربي أفريقية الواقعة تحت الحماية (والتي كانت

مستعمرة ألمانية حينئذ) لاشرافها . وقد صرح اللفتنانت ستريجدوم بأن أية معارضة لسياسة التفرقة العنصرية يعتبر خيانة . وأما وزير التعليم فقد قطع المساعدات التى كانت تعطى لتغذية تلاميذ المدارس الافريقيين ؛ وكذلك فقد أظهرت الحكومة بوضوح نواياها السيئة تجاه نقابات العمال المشتركة .

فى عام ١٩٤٩ صدر قرار الزواج المختلط وأغلقت الحكومة احدى وعشرين مدينة فى وجه الافريقيين الذين يبحثون عن عمل وفى عام ١٩٥٠ صدر قرار تسجيل السكان وقد أدخل ذلك نظاما للتقسيم يقرر بوساطته الجنس لكل الاشخاص منذ ولادتهم والى الابد؛ هذا المقياس الذى جلب عديدا من المتاعب • ولقد كان قرار تسجيل السكان هذا ضروريا بالنسبة لقرارات أخرى مثل الزواج المختلط ؛ وقرار الاخلال بالآداب ؛ والأهم من ذلك الآن بالنسبة لقرار مناطق السكان الجديدة • والذى قسم الاتحاد ككل الى مناطق للأجناس •

لقد قال الدكتور دونجز وزير الداخلية ـ عند تقديم قرار مناطق السكان الى البرلمان ، ان هذا القرار يجب أن يطبق «بعدالة بالنسبة لكل المواطنين» • وكان من النتائج الأولى لهذا القرار أن طرد التجار الهنود فى الترنسفال من أواسط كل المدن ، وفى جوهانسبرج أبعد هؤلاء التجار الى منطقة مكشوفة تبعد عن المدينة بعشرين ميلا • وثمة نتيجة أخرى هى طرد الملاك الافريقيين من أملاكهم الثابتة التى استقروا فيها

وتقديم أماكن أخرى لهم حيث لا يستطيعون شراء الارض . وفضلا عن ذلك ، فقد أعطى القرار الحق للمراقبين فى دخول أى مسكن بالليل أو بالنهار ، ودون أى تنبيه وقد أيد الحزب المتحد هذا القرار الجائر ، وذلك لانه كما يؤمن بالتكامل الاقتصادى ؛ فانه يؤمن أيضا بالتفرقة الاجتماعية والسكنية التى ينفذها القانون .

وقد صدر أيضا فى عام ١٩٥٠ قرار مناهضة الشيوعية ، والذى بوساطته يستطيع الوزير أن «يحكم» على أى شخص بأنه شيوعى ، ويجبره على الابتعاد عن كل المتديات والمنظمات ، ويمنعه من الكلام أمام الناس ، أو دخول بعض مناطق معينة . ولم يكن هناك استئناف لأى من هذه الاحكام . وفى يوم العمال عقد كل من النواب الافريقيين والهنود اجتماعا للاحتجاج ، وقتل منهم ثمانية عشر شخصا فى عراكهم مع البوليس . وقد كانت انتخابات جنوب غربى افريقية الأولى ــ والتى أعطت للناخبين البيض تمثيلا يعادل ثلاثة أضعاف مافى الاتحاد ــ نصرا للدكتور مالان ، اذ أنها قدمت له أربعة مقاعد لمجلس الشيوخ وستة مقاعد لمجلس النواب أكثر عن ذى قبل . وفى ١١ سبتمبر عام ١٩٥٠ مات سمطس ، واستقال الدكتور جانسن من منصبه كحاكم عام ، وعين الدكتور فيروورد وزيرا للشئون الوطنية . وقدر له بأن يكون أكبر داعية للتفرقة العنصرية .

وفى عام ١٩٥١ صدر قرار حكومة الباتنو ، والذى تخلص

من متاعب المجلس النيابى الوطنى ، وبدأ فى خلق نظـــام هرمى من السلطات تحت امرة وزير الشئون الوطنية • وفى الصراع من أجـل اقصـــاء الناخبين الملونين من القائمة العــامة ، نالت الحكومة أغلبية عادية فى عملية الاقصـــاء ، وذلك على افتراض أن دستور وستمنستر قد أعفى اتحاد جنوبى افريقية المســتقل حاليا من أى حق فى مراقبة الحماية الدستوريه • وقــد توعد وزير التعليم بمنع المنح عن الجماعات الثقــافية التى لا تلاحظ فارق اللون ، وقد قررت حركة التعليم المسيحية لهــذا السبب أن تستمر فى رسالتها دون مساندة الدولة • وقد جعلت جوازات السفر ملكا للحكومة ، واضطهد المئات باســم الشيوعية • وكان تكوين طليعة الفدائيين من حوادث العـــام المثيرة ، وكانت تتكون من الخدم السابقين وأناس آخــرين ساروا الى مدينـــة الكاب وتظاهروا ضد اقصاء الناخبين الملونين ، وقد كانت الطليعة قادرة فى البداية على اخفاء معضلة البيض فى جنوبى أفريقية ، أى أنهــا كانت تدافع عن حقوق الملونين ، ولكنها لم تكن على استعداد للتفاهم معهم •

وفى عام ١٩٥٢ أدخل الدكتور فيروورد قرار سلطات البانتو المدنية والذى بوساطته كان يأمل فى أن يفرق بين الافــريقيين ويحكمهــم • وقد نقضت محـــكمة الاستئناف التمثيل المنفصــل لقرار الناخبين ، ومن ثم فقد ضمنت الحكومة تمرير المحــكمة

العليا لقرار مجلس البرلمان ، وجعلت البرلمان محكمة استئنافية ذات منزلة أعلى من المحكمة الموجودة في بلومفونتين •

ومن حوادث هذا العام التي تدعو الى الانتباه بدء حركة المقاومة ، وقد خالف بضعة ألوف من المتطوعين غير البيض قوانين التفرقة ؛ وانضم اليهم بعد ذلك باتريك دونكان ابن عم باتريك دونكان الراحل ، أول مواطن في جنوب افريقية — عين حاكما عاما —

وقد نقضت المحكمة البرلمانية العليا نقض محكمة الاستئناف ، ونقضت محكمة الكاب العليا نقض المحكمة العليا ، وساندها في ذلك قرار محكمة الاستئناف • وقد شوهت حركة المقاومة بمظاهرات قامت في بورت اليزابيث وشرقي لندن ؛ قتل فيها كثير من الاوربيين ، وقد تبرأ الزعماء من المتظاهرين ولكن كثيرا من الناس آمنوا بأن مقاومتهم قد فتحت الباب أمام العناصر التي لا تعترف بالقانون • وقد تكون مجلس الديموقراطيين البيض في هذا العام وهو تنظيم راديكالي يعارض سياسة التفرقة بثبات ، ويعمل على التعاون بشكل وثيق مع الافريقيين والهنود • وهكذا انتهى هذا العام المملوء بالمتاعب •

وفي عام ١٩٥٣ قرر البرلمان قرار الامن العام ؛ الذي قدمه تسعة من المنشقين وأيده الحزب المتحد • وكذلك ، فقد مرر قرار تعديل قانون الاجرام وذلك لكي يعوق حركة المقاومة ،

وهذا القانون يقضى بعقوبات ، تعادل ٣٠٠ جنيه استرلينى غرامة والسجن ثلاث سنوات ، والجلد لمن يعترضون على القانون ، وقد أدى ذلك الى انتهاء حركة المقاومة وحرم كثيرون من زعمائها حقوقهم المدنية ، منهم الرئيس السابق ليتولى بـ الرئيس العام للمجلس الأعلى الافريقى الوطنى .

وفى الانتخابات العامة ، حصل الوطنيون على تسعة مقاعد جديدة ، ولو أن عدد أصواتهم ما زال أقل . وقد أدى هذا الى تكوين حزب الأحرار ليحل محله رابطة الاحرار ، ولم يشترط الحزب أى لون بالنسبة لأعضائه وكذلك فقد عارض الحزب كل قوانين التفرقة . وكذلك فقد ظهر الحزب الاتحادى الى حيز الوجود ، وأعلن عن معارضته للجمهورية ؛ وتأييده للنظام الفيدرالى ولكنه لم يتخذ موقفا حازما تجاه قضية التفرقة العنصرية .

وقد حاول الدكتور مالان ــ رئيس الوزراء ــ الحصول على أغلبية الثلثين مرة أخرى . وذلك لاقصاء الناخبين الملونين الى قائمة منفصلة ، ولكنه فشل فى هذه المرة . وقد حفظت كل وظيفة لجنس معين . وهدد الدكتور مالان الجامعات التى سمحت للطلبة غير البيض بدخولها ، ومرة أخرى شدد على ضرورة تعاون جنوبى افريقية مع الدول الواقعة تحت الحماية .

وفى عام ١٩٥٤ فشل الدكتور مالان مرة أخرى فى الحصول على أغلبية الثلثين اللازمة لاقصاء الناخبين الملونين الى قائمة

منفصلة ، وذلك لأنه لم يستطع اقناع الحزب المتحد بتأييده . وقد مرر قرار الوفاق الصناعى المخيف ، الذى لم يكن يسمح بتكوين نقابات للعمال الافريقيين ، أو نقابات عمال مختلطة ، والذى اباح للوزير توزيع الوظائف على أساس الجنس . وقد أعلن أن ضاحية جوهانسبرج الافريقية الحرة التى يبلغ عمرها أربعين عاما ؛ والتى تسمى صوفيا تاون منطقة للبيض ؛ وقد تمكن الدكتور فيرвورد ـ الذى فشل فى ضمان تعاون مجلس مدينة جوهانسبرج ـ من تمرير قرار لاقامة مجلس حماية وطنى ، وذلك لابعاد ساكنى مدينة صوفيا «صوفيا تاون» الى ميدولاند حيث لايستطيعون التمتع بحقوق حرة . وقد تم ذلك طبقا للنظرية التى تنادى بأن الافريقى هو «ساكن مؤقت» للمدن ، وقد أثار ذلك دهشة المراقبين المنصفين من أن الوزير يستطيع أن يسحق بحماقة طبقة ملاك الأراضى الافريقيين التى لايحتمل أن تهب نفسها للثورة أو العنف . وكذلك فقد رعى الدكتور فيرвورد قرار تعليم الباتنو ، وذلك يعنى نهاية نشاط الارساليات فى ميدان التعليم . وقد قال الوزير فى مجلس البرلمان أنه لايوجد مكان للافريقيين فى المجتمع الاوربى . وقد اعتبرت مدارس الباتنو مدارس طائفية ، ليست تحت اشراف الارساليات ، ولكن تحت اشراف المجالس الطائفية ، والتى يشرف عليها الوزير لا الطائفة . وأما المدارس التى ترغب فى أن تستمر كمدارس خاصة فعليها أن تنال موافقة الوزير . وقد

وافقت الكنائس الهولندية البروتستنتينية على هذا القرار ، كما فعلت بعض الارساليات الاجنبية الثانوية ، ولكن الكنائس الأخرى اعترضت على ذلك .

وفى ديسمبر عقد مؤتمر كنائسى لجميع الاجناس فى جوهانسبرج ، تحت رعاية الكنيسة الهولندية البروتستنتينية ، وقد تكلم فى هذا المؤتمر متحدثون ومندوبون من كل الاجناس، بالرغم من أنهم كانوا يجلسون ويأكلون منفردين وقد وعد الحزب المتحد باتنهاج سياسة غير أوربية جديدة ، ولكن مجلسه لم يتخذ شيئا فى هذا الصدد فى الحقيقة ، وقدمنع مجلس ناتال الاقليمى ــ والذى يتحدث معظم أعضائه اللغة الانجليزية ــ الرياضة المختلطة من أجل تسجيل السكان طبقا لقرار تسجيل السكان ، فقد كانوا يمررون المشط والقلم فى شعورهم لكى يقرروا ما اذا كانوا من الافريقيين أو الملونين ، وكانوا يسألونهم أسئلة شخصية مهينة . وقد مرر البرلمان الانتقال من قرارتنظيم الاتحاد ، وذلك لتنظيم الزيارات الخارجية للاشخاص الذين يحتمل أن يسيئوا الى الاتحاد وحكومته الشخصية . وقد طبع تقرير توملينسون الذى انتظرته الحكومة طويلا ؟ والذى كانت تأمل أن يحقق التفرقة ، ولكن التقرير قدر أن عدد البيض فى عام ٢٠٠٠ م . سوف يزداد على غيره في مناطق البيض بصرف النظر عن تنمية الاحتياطى الوطنى . وقد أوصت لجنة توملينسون

أيضا بصرف مايزيد على ١٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه استرليني عـلى تنمية الاحتياطي في عشر سنوات ، في حين صوتت الحكومة على مبلغ ٣٥٠٠٠٠٠ جنيه استرليني فقط . وقد كانت هذه لطمة كبرى لدعاة التفرقة الكليـة ، ولكنهم مازالوا يصـممون على الدفاع عنها . وقـد قرر الكاثوليك ادارة مدارسهم دون مساعدة الحكومة ، وزادوا الاعتماد بمبلغ ٧٥٠٠٠٠ جنيه اسـترليني ، ولكن بقي من غير المؤكد ما اذا كانوا سيحصلون على التصريح اللازم لذلك . وبالرغم من أن كلية آدامز والمدرسة الارسالية القديمة في باتال قد حصلتـا على النقود اللازمة ، الا أن الحكومة رفضت التصريح لهما ؛ ومن ثم فقد أغلقتا أبوابهما .

في عام ١٩٥٧ بينت لائحة جامعـة فورت هير الانتقاليـة ولائحة التعليم الجامعي المنفصل عزم الحكومة على فصـل التعليم الجامعي للطلبة من غير البيض ، وتنفيذ تهـديد الدكتور مالان ضـد جامعات كيتون ووتيووترا سراند المفتوحة ؛ لقبولها الطلبـة غير البيض . وقد أحيلت هذه المسائل الى لجنة برلمانية ، ولكن من المتوقع أن تعمل الحكومة في أواخر هذا العام (١٩٥٨) من أجل التفرقة الكلية النهائية . وقد أثار بند الكنيسة الشهيـرة في قرار تعديل القوانين الوطنية الاضطراب الذى ساد هذا العام ، والذى خول للوزير بعد الحصول على موافقة السلطة المحلية الحق في أن يمنع الافريقيين من الحضور الى الكنائس في مناطق البيض المدينية ، وكذلك حقوقا أخرى حول ارتياد الافـريقيين

لبعض الأماكن الأخرى . ولقد عارضت كنائس البيض ممن ينطقون اللغة الانجليزية البند الخاص بالكنيسة بشدة ، ولكن الكنائس الهولندية البروتستنتينية قد حصلت على تأكيدات من الوزير طمأنتها . وقد نصح كثير من زعماء الكنيسة أتباعهم بمخالفة القانون ، وهذا عمل خطير ليس له مثيل فى تاريخنا .

وكيفما كان الامر ، فقد أنجز قرار المساحات السكنية الجديد فى نهاية العام بهدوء ما أنجزه الدكتور فيروورد بعد أن اشتهر أمام العالم . فقد عرف «احتلال» منطقة ما بطريقة تعتبر كتهديد لأى نوع من الاختلاط بين الأجناس وقد خلق قرار التمريض سجلات منفصلة للاجناس ، وأعطى الاشراف على المهنة لمجلس كل أعضائه من البيض واعطائهم سلطة فرض اتجاهات مختلفة للأجناس المختلفة ، وكذلك زيا مختلفا . ومن ثم فقد مر عام كئيب آخر .

وقد أجريت الانتخابات الاولى للناخبين الملونين الذين تم فصلهم ؟ قبل الانتخاب العام فى عام ١٩٥٨ . وقد قدر أن ٣٠٪ فقط من المجموع المحتمل للناخبين الملونين قد سجلوا أسماءهم ، ومن هؤلاء أعطى ٤٠٪ فقط أصواتهم . وكذلك فقد قدر أن الملونين الشباب قد قاطعوا الانتخابات تماما . وقد كسب مرشحو الحزب المتحد المقاعد الاربعة بسهولة ، وهزموا الوطنيين تماما . وقد كانت وجهة النظر القاطعة أن جزءا فقط من كبار السن من الملونين والاكثر محافظة منهم على القديم هم

الذين أدلوا بأصواتهم ؟ وأنهم صوتوا بالاجماع ضد التفرقة .

ثم أتى بعد ذلك الانتخاب العـــام . ولقـــد حصل الحزب الوطنى على ١٠٣ مقاعد (بزيادة ٧) والحزب المتحد على ٥٣ مقعدا (بزيادة ١) وكان مكسب الوطنيين على حساب الحزب المتحد ، فى حين كان مكسب الحزب المتحد على حساب العمـــال والمستقلين . وهكذا فقد اتجه الناخب الأبيض صوب اليمين . وقد قدر أن عدد الاصـــــوات قد قسم بشكل تقـــريبى مناصفة بين الحزبين الوطنى والمتحد . وقد أزيل حزب العمال ، فى حين أحرز الاحرار الثلاثة ــ والـــــذين انتخبوا لاول مرة ــ ٦ ٪ ، ٧ ٪ ، ١٧ ٪ من القائمة الانتخابية على التوالى .

وقـــد قرر المجلس الافريقى الوطنى المنـــاداة بالاضراب والاعتصام فى المنازل فى أيام ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ابريل ، وكان هـــذا اليوم الاخير هو يوم الانتخاب العـــام . وقـــد أيدت المجالس الاخرى هذا المشروع وأخبر به حزب الاحرار ، فى حين هاجمه الحزبان الوطنى والمتحد . وقد توعد وزير العمـــل ــ المستر جان دى كليرك ــ المضربين بأنه سيلقنهم درسا عن « ســـيادة الرجل الابيض » ، وصدرت الاوامر الى البوليس بالتيقظ . وقد فشل الاضراب وأبطل فى مساء اليـــوم الأول . ولقد كشف هـــذا الاضراب عن حقيقة واحدة هى التنظيم الشـــديد الذى ما زال الافريقيون فى حاجة اليه ، وذلك اذا ما أرادوا القيـــام بعمل فعال خارج نطاق البرلمان .

وعندما قام التهديد بالاضراب ، أرجع الدكتور فيروورد ـ وزير الشئون الوطنية ـ قرار الادارة الوطنية الذى صـــدر عام ١٩٢٧ ، ومنع الاجتماعات لما يزيد على عشرة أشخاص من الافريقيين فى مناطق كثيرة ، وذلك لكى يمنع اضطراب العمل . وما زال هذا القرار ساريا الى اليوم (٢٢يونيو وبعد الانتخابات بعشرة أسابيع) (١) وكنتيجة لذلك لم يستطع حزب الاحرار أن يعقد اجتماعات حـــرة ، وقد استغاث الحـــزب بسكرتير وزير الشئون الوطنيـــة وكان رده أن الوزير مشغول للغـــاية ، وأنه ما زال يجمع المعلومات ومع ذلك فقد كان الوزير يعرف ولا بد أنه قد عرف ، أن حزب الاحرار ليس له دخل باضطراب العمل. لقـــد كان يروق للوزير أن يراوغ حـــزب الاحرار (هـــذا كل مافى الامر) .

وكان اعلان مناطق السكان فى مدينة ديربان بمثابة الخاتمة لأحداث عام ١٩٥٨ الموجهة للنظر ـ وبناء على هذا القرار يجب ابعاد ٣٠٠٠٠ أوروبى ؟ ٩٧٠٠٠ شخص من أجناس أخرى . وقد أصيب جماعة الهنود من جراء ذلك بخسائر فادحة ، فممتلكاتهم ، التى تعنى الكثير بالنسبة لهم ، لاتعنى شيئا بالنسبة للاوربيين الذين يمتلكون المنطقة الآن . وانه لحقيقى أن الســـلطات ربما تحدد ثمنا «أساسيا» لهذه الممتلكات طبقا لقرار تنمية المساحات السكنية ، ولكن يجب ألا ننسى أنه لا يمكن استئناف هـــذا الحكم

(١) رفع هذا القرار فى ٢٩ أغسطس .

وهكذا فان التفـرقة تسير فى طريقها القـاسي والصلب ، وهي تحتجب وراء الكلمات البراقة ، فى حين تخلف وراءها سلســلة طويلة من المرارة والألم .

واننا لنتطلع الآن الى الدورة الاولى لبرلماننا الجـديد ، ونحن نعجب للاستحكامات الجديدة التىسوف تقام ، وللحماقة الجديدة التى سوف ترتكب فى هــذه العملية الغريبة لتـأمين الأفريكانية بأكثر الطرق خطورة فى العالم .

الفصل السابع

المستقبل الصعب

انني آمل أن يكون فى هذا العرض التاريخى الموجز ؛ مايساعد القراء فى البلدان الأخرى على أن يتفهموا كيف وصلت القوميـة الافريكانية الى ماهى عليه اليوم ؛ ولماذا تبدو سليمة فيمايتعلق بالعلاقات بين الأجناس . وبالنسبة لبعض الناس تبدو القومية الأفريقية كقوة لايمكن مقاومتها ؛ وتبدو القومية الأفريكانية كعقبة راسخة .

وفضلا عن ذلك ؛ فمن الممكن أن يوضح هذا الغرض أن فكرة الحرية فى المجتمع العام لاتحوز القبول لدى كثيرين من الافريكانيين ؛ ومما يزيد ذلك أن هذه الفكرة قد أدخلت بوساطة الادارة والارساليات البريطانيـة ..

والآن يحكم الوطنيون الافريكانيون القطر وثمت أمل ضئيل فى الوقت الحالى لمساندتهم ؛ وكنتيجة لذلك ازدادت عقيدتهم عن التفرقة العنصرية قوة ؛ ولا يمكن أن يكون هناك أى شك فى أن الافريكانيين كانوا فى الماضى عرضه للنجلزة (أى اكسابهم الصفات الانجليزية) كذلك الآن فان هؤلاء الذين ينطقون باللغة الانجليزية عرضة للأفركة

(أى اكسابهم الصفات الافريكانية) ؛ وعلى وجه الخصوص فيما يتعلق بهذه العقائد .

ومن الواضح كنتيجة لانتخابات عام ١٩٥٨ أن نصف النـــاخبين البيض يؤيدون سيادة البيض وسيادة الافريكانيين ؛ وأن نصف الناخبين هذا يستطيع أن يستحوذ على ثلثى المقاعد ، ومن الواضح أن الغالبية العظمى من النصف الآخر ، ولو أنها لا تؤيد سيادة الافريكانيين ؛ الا أنها تؤيد بالتأكيد سيادة البيض مع أنهم لايستحسنون هذا اللفظ ؛ ويفضلون عليه زعامة البيض . ويتضح اذن أن الناخب الأبيض لايحبذ اعطاء امتيازات سياسية لغير البيض ؛ وان الحزب المتحد قد اندفع ـ منذ موت هوفماير وسمطس تجاه اليمين .

وفضلا عن ذلك، يسير الناخب الأبيض فى روديسيا الجنوبية فى الاتجاه نفسه على مايبدو ؛ فهو ربما يحن الى جنوب أفريقية من أجل حماية نفسه ؛ بعد هروبه الى روديسيا طلبا للحرية .

هذه حقائق بشعة يجب علينا أن نواجههـــا . ومما يزيد فى بشاعتها على حسب رأى هوفماير الـــذى شرحه بوضوح ـ أن أى عمل من جانب البيض ربما يخلق رد فعل من جانب السود ؛ وأن كل عمل من أعمال القمع ربما يزيد الصراع حدة أكثر فأكثـر . وكما يقول هوفماير «امض الى الامام فى ثقتك» ، ولكن غالبية البيض فى جنوب افريقية يعتبرون ذلك اليوم غير عملى ، وغير واقعى ، بل وفى غاية الخطورة .

وكيف يهرب الانسان من هذه الورطة ؛ اذا ماكان يؤمن حقيقة إن عمل الخير وعمل الشر يتساويان في الخطورة ؟ ليس هنالك الا طريق واحد للهروب ؛ هو التفرقة العنصرية الكلية ؛ أى التقسيم التام لجنوب أفريقية الى مقاطعات منفصلة للأجناس ؛ يعيش كل جنس في مقاطعته ويدير شئونه الخاصة .

لقد أسمى البروفيسور ب . ي كيت ذلك بحلم اليقظة ؛ ولا يمكن أن نجد اسما أكثر ملاءمة من ذلك ؛ ليس فقط لأن الحلم يبدو خياليا ؛ ولكن أيضا لأننا من الممكن أن نحلم به حتى ولو كانت كل اشارة تدل ؛ أو كل حدث يتحرك ؛ الى اتجاه مضاد . وعلى ما أظن توجد أربعة أسباب منيعة تجعل من التفرقة العنصرية الكلية أمرا مستحيلا ؛ فلا توجد الأرض اللازمة لذلك ؛ ولا توجد النقود ؛ ولا يوجد الوقت ؛ وكذلك لا توجد الارادة .

وأكثر من ذلك ؛ نجد أن بعض معارضي الحكومة ؛ بعد الهزيمة الكبرى في انتخابات سنة ١٩٥٨ ؛ يميلون الى القول بأن التفرقة العنصرية شديدة القوة بالنسبة لنا ــ وانه لمضيعة للوقت أن نحاربها ؛ دعنا نحاول أن نقوم بها .

وفى النهاية ؛ يستطيع مؤيد التفرقة العنصرية الكلية أن يقول ؛ انني حر أنا الآخر . انني أفريكاني حر . وأنا أريد التفرقة العنصرية ولكنني أريدها تفرقة عادلة . لماذا لا تساندونني ؟

توجد هناك أسباب واضحة ومؤكدة ؛ لماذا لا يستطيع الأحرار

على الاطلاق أن يساندوا قوى التفرقة العنصرية التامة ؛ وذلك بالاضافة الى عدم وجود الأرض والنقود والوقت أو الارادة .

فالتفرقة العنصرية من أى نوع بالنسبة لنا هى نبذ رفاقنا ؛ هؤلاء الذين ولدوا وعاشوا وماتوا على أرضنا نفسها . ان جعل التفرقة كاملة لايغير بالضرورة من هذه الحقيقة ، وهى اننا ننبذ رفاقنا . فالتفرقة الكاملة هى الحيلة التى بها نستطيع أن نتخيل النبذ والعدالة فى وقت واحد ، واذا ما نظرنا اليهـــا من الناحية الدينية ، فهى تعنى حب جيراننا ، على شريطة ألا تكون منازلهم بجانب منازلنا .

ليس مجتمعنا الحالى الا ثمرة مشتركة للجهود التى قام بها كل رجال جنوب أفريقية ؛ ثم ان هناك أشياء لايمكن تقسيمها ؛ مثل المدن والموانىء والمناجم . كيف يمكن أن يكون هناك أى تقسيم عادل لبلدنا ؟ وعلى العكس من ذلك فاننا نعتقد أن المجتمعات الجديدة سوف تدان دائما والى الأبد من أجل هذه الحياة الفقيرة والبائسة . وعلى هذا فاننا نرفض هذا الاقتراح . ثم بعد ذلك ، وبعد أن رأينا الظلم الذى قامت به التفرقة العنصرية فى مهدها ، كيف نستطيع أن نصدق أنها سوف تختلف عن ذلك فى النهاية ؟ ان التفرقة العنصرية ـــ سواء كانت جزئية أو كلية ـــ هى فى جوهرها سلاح فى أيدى أناس يملكون القوة فى وجه أناس لايملكون من مقوماتها شيئا .

ولكننا نرفضها بشكل أكثر تصميما لأننا نعتقد أن هدفها الباطل سوف يرجىء اليوم الذى يتقاسم فيه كل رجال جنوب أفريقية بالتساوى

واجباتهم وحقوقهم وأفراحهم فى آن يعيشوا فى بلدهم جنوب أفريقية الى أكثر من ذلك • ومن الممكن أن نضيف الى ذلك أن ما يسعى اليه هذا الهدف الوهمى ربما يرد بعض مفكرينا من أن يمعنوا النظر فى المشكلة الحقيقية ، وهى خلق مجتمع مشترك فى ظل ظروف بالغة الصعوبة •

ولدينا سبب آخر يجعلنا نعتقد أن التفرقة الكلية هى أمر خيالى؛ حيث أننا اذا ما افترضنا أننا استطعنا القيام بذلك ، فكيف ترقب دولة البيض دولة غير البيض ؟ وهى تقيم تحالفات بينها وبين بلدان أفريقية الأخرى وبلدان العالم ؟

وهذا يوضح مدى صعوبة المشكلة التى تواجهنا فداعية التفرقة العنصرية يقول : أن فكرة المجتمع المشترك غير ممكنة • بل وحتى تدعو الى الاشمئزاز • على حين يقول رجل الأحرار أن التفرقة كنوع من السيادة سيكتب لها الفناء ؟ وأن التفرقة الكلية لن ترى النور على الاطلاق ؟ ولقد علمت من خلال تجاربى أن الداعية الى التفرقة الكلية والذى يحدث بداخله صراع بين العقل والعاطفة على الدوام؛ يؤمن بحجة رجل الأحرار ؟ ويسوقنا الى مسألة أخرى جديدة ؟وهى أنه مادمنا لم نعرف بالتأكيد بعد ؟ هل كانت التفرقة الكلية أو الوحدة هى الحل المرتقب ؟ فان مهمتنا أن نسير فى طريق التفرقة الكلية أكثر من أن نسير فى طريق الوحدة ، وذلك لأننا نستطيع أن نرتد مرة أخرى بعد التفرقة الكلية ؟ ولكننا لانستطيع أن نقوم بذلك فى حالة الوحدة وهذه حجة مهمة ذات مغزى •

ومهمتي هي أن أضع بوضوح أمام القارئ المشكلات التي تواجهنا في طريق الوصول الى أي من هذين الهدفين • ومهمتي أيضا هي أن أبين أن هناك كثيرين من رجال جنوب أفريقية الذين يرقبون المستقبل بقلق بالغ ـ وذلك لأنهم يؤمنون باستحالة الوصول الى أي من الهدفين وسوف تكون مهمتي بعد قليل أن أجاهد من أجل مبدئي ؛ وهو أننا بينما نجد التفرقة الكلية مستحيلة ؛ فان المجتمع الديموقراطي هو أمر لابد منه ؛ الا اذا انطفأت أو خبت روح الديموقراطية في هذا العالم •
كيف نصل الى هذا المجتمع بالضبط ؛ وهل سنصل اليه من غير أن ندفع ثمنا باهظا مثل طرد معظم الناس البيض ؛ أو مواجهة كفاح مثل ذلك الذي يحدث في الجزائر ؟ هذه هي الأسئلة الحقيقية •

توجد ثمت مشكلة أخرى في طريق الوصول الى حل ديموقراطي يقوم على الحرية وعدم التمييز بين الأجناس • ان أحد الأسباب التي تدعونا الى تأييد حل الأحرار هو أننا نرى الخطر الناجم عن عدم اتفاق الجماعة • ولكن ازدياد عدم الاتفاق هذا يجعل حل الأحرار أقل احتمالا وأكثر صعوبة اليه • ويجب على قرائي الأعزاء أن يفهموا بوضوح أن الحكومة لاتوافق على اتحاد بين الجنسين أو بين الجنس نفسه ؛ فقد قامت باتخاذ بعض اجراءات غير مباشرة كي تجعل ذلك مستحيلا ولديها من القوة في بعض الظروف ماتستطيع أن تقوم به لاتخاذ خطوات مباشرة أيضا • انها لاتريد أن تقول بجسارة « يجب ألا يكون هناك صداقة أو صلة بين شخص أبيض وآخر غير أبيض ؛ حتى يستطيع العالم أن يسمع ذلك ؛ ولكنها تشعر بقدرتها على أن تقول « أنت أيها الرجل

الأبيض ؛ لاتدخل هذه المنطقة ؛ لأنها مخصصة للســـود ؛ حتى يمكنهم أن يعيشوا بالاعتماد على أنفسهم ؛ دون أن يعوقهم أو يمنعهــم أى فرد من أية جماعة أخرى أو جنس آخر » وفى الحقيقة لم يكن أى شخص أبيض يستطيع قبل أن تمسك الحكومة الحاليــة بمقاليـــد السلطة بفترة طويلة ــ أن يدخل أى « مركز (١) بدون تصريـــح ؛ واذا مافكر أى شخص أبيض فى أخذ تصريح لرد الزيارة لشخص أسود فى مكانه فقد كان ذلك يقابل بالاستنكار • وبمعنى آخر ؛ لقــد جعل تزايد التفرقة العنصرية الاجبـــارى ، من الصعب خلق وعى بمشكلة الجنس ؛ يجب أن يقوم أى حل للمشكلة على أساسه •

ومن حسن الحظ فان الطريق الى الأمام ليس مسدودا تماما • فمكتب جنوب أفريقية لشئون الأجناس (٢) فى اجتماعه الأخير فى ستيلينبوش قد ناقش موضوع التشاور بين البيض وغــير البيض ؛ وقرر المناداة بعقد اجتماع مع الزعماء من غير البيض فى المستقبل القريب ــ وذلك يتعارض بشكل مباشر مع ساسة الدكتور فيرفورد الذى أخبر الطلبة فى ستيلينبوش أنه يجب عليهم أن يتركوا مسألة التشاور له ولأعضاء وزارته • ولقد سرت اشاعة قوية فى المؤتمر

---

(١) ولست أشك فى أن الدكتـــور فيروورد • اذا ما كان يمسك وحده بزمام السلطة ــ لن يتردد فى سن قانون ينص على ألا يدخل أى شخص غير أبيض منزل رجــل أبيض ما لم يكن • خادما •

(٢) مكتب جنوب أفريقية لشئون الأجناس ، هو منظمة غير سياسية يســـاندها الى درجة كبيرة الوطنيون الذين يؤمنون بالتفرقة العنصرية الكلية •

الوزراء والسلطة القضائية ؛ ولكن أيضا فيما يتعلق بالهيئات الوطنية
فيه السلطات والاختصاصات ؛ ليس فقط فيما يتعلق بالبرلمان ومجلس
والمحلية ..

ولسوف نصل الى هذا الهدف بالتاكيد مالم تتقهقر قوى الديموقراطية في العالم . ويمكننا أن نصل الى ذلك باحدى طريقتين اما كنتيجة للعنف والثورة التى تعقبها سيطرة الجنس الأسود ؛ أو بوساطة عملية تطور مذهلة . وبشكل تقريبى ؛ ليست المشكلة ببساطة هى الاختيار بين الثورة والتطور ؛ انها ثورة أو تطور ثورى . واذا لم يقبل بعض القراء هذه اللهجة ؛ فمن الممكن أن نقول ان فرصة الاختيار تكمن بين الثورة والتطور المذهل . وأنا لا أعرف رجلا واحدا من الأحرار يعتقد بأن التغير سوف يحدث كنتيجة للتطور الهادىء والمستقر . ويعتنق هذا الوهم الغريب ؛ هؤلاء الذين يظنون أن التغير سوف يستغرق آلاف السنين أو يجب أن يكون كذلك ؛ ويدافع عنه على ما أعتقد هؤلاء الذين تعتمد مصالحهم على الاستقرار ؛ وهؤلاء الذين يأملون ألا يروا مثل هذا التغير . وهذا هو الرأى السائد لأعضاء الحزب المتحد .

واذا ما قدر لنا أن نمر بتجربة ثورية عنيفة فمن الواضح على ما أظن ؛ أنه لن يبقى أى تنظيم للأحرار بعد ذلك ؛ وربما لن يبقى أى رجل حر . ولسوف أتناول بالكلام مهمة الأحرار وحزب الأحرار فى فترة التطور الضخم وأنا أومن فى الحقيقة أننا قد دخلنا هذه الفترة بالفعل ومهمة الأحرار بوضوح ؛ ليس فقط من أجل

الذى عقده المكتب أن الدكتور فيروورد قد استقال من المكتب .. ولكن هذه الحقيقة لم تؤيد أو تكذب على أى حال .

والأكثر من ذلك؛ أن مكتب جنوب أفريقية لشئون الأجناس سوف يستشير « الزعماء » الحقيقيين . وليست هذه الدمى ؟؟ التى يستشيرها فيروورد . وأنا أعنى بالزعماء أناسا مثل الرئيس ليتولى والبروفيسور ماتهيوز هذان الرجلان اللذان اعتقلا فى ديسمبر عام ١٩٥٦ واتهما بالخيانة العظمى . وقد وصف البروفيسور دبلسيس وهو عضو آخر من أعضاء المكتب ؛ مستشارى الدكتور فيروورد بأنهم « مأجورون » وهذا هو الوصف المطابق لهم .

ومع ذلك ؛ ومهما كان ذلك يدعو الى الغبطة فمن المحتمل أن تقبل الحكومة التشاور بين المكتب والزعماء من غير البيض أكثر من أن تقبل التشاور بين الأحرار وغير البيض من الزعماء ؛ وذلك لأن المكتب ينتهج سياسة التفرقة الكلية . ولا نستطيع ثم أن نستبعد احتمال أن يطبق القانون بطريقة تسمح فقط بهـــذا النوع من الترابط بين الأجناس .

ثمت مشكلة أخرى يجب علينا أن نواجهها قبل أن نمضى فى مناقشة مهمة حزب الأحرار فى الموقف الراهن . فكلنا يأمل فى أن يصبح جنوب أفريقية ـ برغم الفترات العصيبة التى سيمر بها ـ بلدا ديموقراطيا فى النهاية . ونحن نعنى بذلك أن تقوم فيه النظم البرلمانية على طراز حديث ؛ وأن يصبح له دستور ووثيقة للحقوق . وأن توزع

أنفسهم ، ولكن من أجل كل رجل فى جنوب أفريقية أن يسعوا — بالتعاون مع الأفراد الآخرين الذين يفكرون بالطريقة نفسها — لتأكيد أن العملية لن يسمح لها بأن تدخل فى طور من الفوضى والعنف ، من الممكن أن تفقد خلالها كل قيم الحرية ، وبدون ضمان يكفل الوقت الذى ترجع فيه هذه القيم مرة أخرى .

وليست هذه بالمهمة السهلة ؟ انها تشبه الى درجة كبيرة أن يطلب منك أن تقود عربة الى غاية الوصول بأمان وأنت تتحكم فى توجيهها ولكنك لاتستطيع أن تتحكم فى سرعتها .

الفصل الثامن

العمل داخل البرلمان وخارجه

لقد عارض حزب الاحرار فى جنوبى أفريقية سياسة سيادة البيض بالتالى لأنها فاسدة أولا ؟ ولأنها كانت غير ممكنة أيضاً •وقد عارض سياسة التفرقة الكلية . لأنها كانت غير ممكنة أولا ، ولانها فاسدة أيضا . وقد عارض الحزب أيضا سياسة الحزب المتحد ، التفرقة مع العدالة ، وكذلك فقد عارض الحزب الحل الثورى ، وذلك نظرا لطبيعته ، وكذلك لاعتقاده أن الثورة سوف تدمر الحريات الاساسية للمواطن •

وينظر الحزب الى نفسه كشريك ومؤيد لعملية التطور ، ويصر على امكانية احداث التطور ، ولو أنه لايعتقد أن تكون العملية قائمة على أساس التخطيط التدريجى ، وفى الحقيقة يوجد هناك سبب سليم واحد لاعتقاده أن التخطيط التدريجى أمر مستحيل وهو أن الحزب الوطنى لن يهزم على الاطلاق فى الانتخابات مرة أخرى . وهذه الفكرة معروفة جيدا خارج الحزب الوطنى وداخله .

كيف يمكن فى ظل هذه الظروف ابعاد الوطنيين بالوسائل

البرلمانيـــة ؟ والحقيقة أنهم ، شرعوا عن عمـــد فى جعـــل ذلك مستحيلا لقد جعلوا جنوبى أفريقية ذا حزب واحد من الناحيـــة القانونية والدستورية .

لقـــد أجبرت التحصينات الكبيرة التى قام بها الحـــزب الوطنى كل عناصر المعارضة على أن تعيد النظر فى استراتيجيتها. وكيف يعـــارض أى فرد حـــكومة أعطت لمؤيديها كل مميزات معقولة ؟ والتى يبدو ابعادها عن الحكم أمرا مستحيلا ، مالم يقع حادث أو سلسلة من الاحـــداث التى تجبر البيض فى جنـــوبى أفريقية على مراجعة سياستهم ؟

لقد كان حزب الاحرار يقول دائما ــ عندما تواجهه هذه المشكلة ان له مهمة فى داخل البرلمان وخارجه حتى فى ظل هـــذه الظروف الصعبة والمهمة البرلمانية أو العمل داخل البرلمان هى أن يحاول الحزب أن يضع سياسته ومبادئه أمام كل الناخبين البيض فى القطر ، وأن يحاول اقناعهم بأن الفشـــل فى تغيير موقفهم لن يؤدى الا الى كارثة ، وأن يؤيد الاصوات التى تطالب بالعدالة وأن يكشف عن كل من الحماقة والخطأ فى سياسة التمييز العنصرى وأن يجمع بين الاحـــرار من الافـــريقيين والهنـــود والملونين والاوروبيين فى الاجتماعات الانتخابية وذلك لكى يعطى الفرصة المســـتعمرين من البيض لكى يروا أن هذه القيم التى يخطئـــون عندما يعتبرون أنفسهم الحراس الوحيدين لها ؟ الى النهاية ؟ هذه القيم

انما يساندها أيضا من يعيشون معهم على أرض جنوبى أفريقية من الأجناس الأخرى ؛ وكذلك الأخرى ؛ وكذلك حتى يطمئنوا الى أن الديموقراطية غير العنصرية هى الطريق السليم .

لقد كان حزب الاحرار يعلق أهمية كبرى دائما على حقيقة أن باب العنصرية فيه مفتوح لكل فرد . والاتحاد بين الاجناس بالنسبة لكثيرين من أعضاء الحزب ، يعنى تكوين قطر جديد ، قطر جميل ومثير ، ومحفوف بالمخاطر — ومن المحتمل أن يصبح أكثر خطورة ، وذلك بدون شك — لأن وزير الشئون الوطنية والآلاف المتعددة من مؤيديه ، يعتبرون الاتحاد بين الاجنـاس شيئا غير طبيعى ، يجب أن يحرمه القانون . والاتحاد السـياسى هو أسوأ هذه الانواع وذلك لأن هؤلاء الذين ينغمسون فيـه يعادون سياسة التفرقة العنصرية بصراحة ويفسد مثـيرو الفتن ؛ من البيض أفكار المواطنين المعتـدلين ؛ ويغذونهم بالأفـكار التى تقوض المجتمع المثالى والمنعزل الذى يعمل من أجـله الوزير . وكما أوضحت قبل ذلك ، حظر الوزير فى ١١ ابريل من هـذا العام — عام ١٩٥٨ — التجمع لأكثر من عشرة أفراد من الافريقيين الا لاغراض غير ضارة معينة ، وقد علل ذلك ، بمنع العناصر غير المسئولة فى الايام القليلة القادمة أو الاسابيع القادمة من القيام باضطرابات فى العمل . وذلك بعقد التنبيه لفترة ما أى فى حالات الضرورة فى المناطق المعينة . ومازال هـذا التنبيه أو الاعلان — وأنا اكتب الآن (فى ٢٢ يونيو سنة ١٩٥٨) — معمولا به وعلى

منظمى اجتماعات حزب الاحـــرار أو الاجتماعات الاخـــرى أن يقللوا من عدد الافريقيين الذين يحضرون هذه الاجتماعات ، أو أن يلغوها وعندما سأل الحزب سكرتير وزارة الشئون الوطنية، عما اذا كان خطر اضطراب العمل ما زال قائما ؟ أجاب بقوله ان الوزير كان مشغولا جدا حتى أنه لم يستطع أن يعيـــد النظر فى هذا الوضع . ومن المتوقع اذن أن تلغى الاجتماعات المختلطـــة تماما ان عاجلا أو آجلا ، ومن المحتمل أن يتم ذلك بشـــكل غير مباشر ، حتى يقول مكتب الدولة للاستعلامات للنقاد الاجانب ان هذه ليست الا حالة خاصة ؟ يمكن تصحيحها فقط وذلك عـــلى حساب الغاء القانون الذى يؤكد سعادة الملايين من غير البيض، والذين أعطوا فى النهاية مساحات منعزلة حيث ينعمون بالسلام وحيث يمكنهم أن يعيشوا حياة جميلة بلا قيود ، حياة خالية من كل معانى الاذلال والحـــرمان التى عافوها عنـــدما أجبروا على الحياة فى مجتمع مختلط .

ونحن لا نتوقع اذن أن يـــكون مستقبل الاختـــلاط بين الاجناس ، وخصوصا فى المجال السياسى ، مستقبلا سهلا . فمن ناحية ، نجد أن الحواجـــز الطبيعية المحصنة لسياسة التفـــرقة تجعل ذلك صعبا ولكن الاختلاط بين الاجناس يوصف بالاضافة الى ذلك ـــ ربما يقول البعض أنه قد وصف بالفعل بالخيـــانة . وقد وصف رئيس الوزراء معارضة سياسة التفـــرقة العنصرية

بهذا الاسم ؟ مما جعل الناس يخافون أكثر فأكثر من ارتباطهم بأى انحراف .

ان مثل الخيار بين مايعتقد البعض أنه عادل وحسن ، وما يعتقد الاخرون أنه خيانة ، يستلزم اتخاذ قرارات حصيفة . ولكن يوجد هناك الأحرار ؟ وأنا أقول لن يوجد بينهم الانسان الذى يستطيع أن يواجه فرصة الخيار بين الامتثال من ناحية وبين تأكيد حقوق الفرد فى أن يختلط بمن يريد وأن يختار تأكيد هذه الحقوق ، مهما أوذى فى سبيل ذلك .

والآن دعنا نعود الى موضوع الاحرار والعمل البرلمانى أى الى محاولة ادخال ممثلين فى البرلمان ، حيث يستطيعون الوقوف بصلابة فى وجه سياسة الحكومة الحالية . لقد قبلنا ذلك كجزء من مهمتنا ، ولكن هناك مشكلة مهمة تبرز الى حيز الوجود بالتأكيد .

فنحن نأمل بدخول البرلمان أن نؤثر فى السياسة على الاقل وأن نؤثر فى تقدم جنوب أفريقيا فتتحول من دولة يسود فيها البيض الى دولة ديموقراطية لا تفرق بين الأجناس وعلينا اذن أن نجيب على السؤال التالى ، كيف نأمل أن نقنع البيض فى جنوب أفريقيا بأن يتنحوا عن موقف يمسكون فيه بكل السلطة السياسية ، الى موقف يمارس فيه كل المسئولين من الشعب هذه السلطة السياسية ؟ ماذا نقترح كخطوة أولى ؟ ..

لقد تهرب الحزب المتحد دائما من هـــذه المسألة بتصريحه أن السكان من غير البيض لايهتمون بالانتخابات ولكن بالمأوى والطعام . وهذا حقيقى جزئيا ، ولكن هنـاك اعتراضين لذلك ، أولهما هو وجود ارتبـــاط واضح فى جنوب أفريقيا بين القـــوة السياسية ومستوى المعيشة ، وثانيهما هو أن الزعماء من البيض يهتمون كثيرا بالحق الانتخابى حتى ولو كان البعض خائفا(مثل الخدم) من اظهار ذلك عـلانية ويرد كل من الحـزب المتحـد والحزب الوطنى على الاعتراض الثانى بقولهم ان الزعماء الاكثر قـدما من غير البيض مثيرون للفتن ، وثانيـا أنهم غير ممثلين . وتعتبر الحكومة كل زعماء المجلس الافريقى الوطنى رجالا غير ممثلين فى البرلمان .

ان مســألة حق الانتخاب فى الحقيقة هى أصعب المشـاكل التى تواجه أى تنظيم سياسى لا يجد حلا لمشكلة التفرقة ، سواء كانت كلية أو من نوع الباسكاب .

كان على حزب الاحرار ـ بعـد أن أعلن مهمته البرلمانية ـ أن يبدى رأيه فى مسألة الحق الانتخابى ، وكان عليه أن يفعـل ذلك غداة تكوينه مباشرة ، عندما كان أعضاؤه لايعـرفون الا القليـل عن بعضهم وعنـدما كانوا أعضـاء يرتبطون ببعضهم بمعارضتهم للظلم أكثر من ارتباطهم المشترك لايجاد حل للازمة السياسية وأخيرا وفى عام ١٩٥٣ (بعـد تكوين الحزب مباشرة) عزم الحزب على أن يضع حقا انتخابيا معينا لايعتمد على الجنس

أو اللون ، ولكن يعتمد على التعليم والملكية ، وأشياء أخرى .

رفض الجميع هذا القرار . لقد كانت هناك قلة تريد مؤهلا تعليميا كبيرا ، وكان هنـاك البعض ممن لا يريدون أي مؤهل على الاطلاق . ولقد قالت هذه الفئة الأخيرة فيما بعد : اننا لا نواجـه موقفا عاديا ، اننا فى مفترق الطرق وليست المسألة هى الخيار بين نوع الرجل الذى نقبله كناخب ولكن نوع الرجل الذى نقبله كرجل . ان الافريقى لم يكن يبحث عن الناخب المؤهل . ولكنه كان يريد أن يعترف به كرجل من الآن والى الابد .

ومن ثم فقد أعلن الحزب فى عام ١٩٥٤ أن حق الانتخـاب العام هو الهدف الذى يسعى اليه ؛ ولكنه استمر فى التسليم بأنه من الضرورى اتمام ذلك على مراحل فى خـلال فترة انتقال ، وفى خلال هذه الفترة من الممكن أن تكون هناك الصفات التى يجب أن تطبق على أقل فترة لازمة للتحول السهل الى حق الانتخاب العام للكبار ؟

ومازالت هذه السياسة تفزع كثيرين من الناخبين البيض لمجرد أنها لا ترضى الاشخاص الاكثر تطرفا (فى خارج الحـزب وداخله) نظرا لما تحتويه من عبارات التأهيل .

ومع ذلك فمازالت هذه هى المعضلة التى لامفر منها لحزب ناشىء فى قطر تسود فيه التفرقة العنصرية .

ويوجد هناك طريقان وحيدان آخران • أولهما هو التراجع الى سياسة حذرة لتقديم امتيازات انتخابيـة للمؤهلين من غير البيض . وأما الطريق الثاني فهـو أن تترك البيض فى جنـوب أفريقيا لتدبيرهم الخاص ، وأن تثبت وجودنا وحدنا دون تدخل البيض . ومثل هـــذا الطريق دون أن يتغير طبقا للاعتبـارات الأخرى ـ لايعجب الأحرار ؟ انه لايعجب الأحرار البيض فقط ؛ ولكنه لاينال رضا الاحـرار من غير البيض . ونحن ننوى أن نسير قدما مهما كلفنا ذلك من ثمن • ونتطلع الى جنوب أفريقيـا الجديدة حيث تمثل كل جمـاعات السكان فى أعمـال الامـة ومجالها دون تمييز أو تفرقة .

وهنـاك الكثير مما يدعونا لافتـراض أن غير البيض من سكان جنوب أفريقيا لن يقبلوا الانتخاب المشروط مرة أخـرى على الاطلاق ؟ وأنهم سوف يقبلون حق الانتخاب العـام فقـط ، ودستورا مكتوبا يتضمن وثيقة للحقوق ويكون قابلا للتعديل فقط فى ظل الظروف اللازمة .

لقـد منحت مستعمرة حكما نيابيا فى عام ١٨٥٣ ، ولكن بحلول عام ١٨٨٧ جعل رودس من المستحيـل بالنسبة للافريقيين الذين يشتركون فى ملكية الاراضى (أى الافريقيين القبليين) أن يمارسوا حق الانتخاب . وفى عـام ١٨٩٢ رفع رودس من شروط ملكية الناخب ، ووضع اختبارا لمعرفة درجة تعليمه . وقد وافق هوفابر على هاتين الخطوتين من قبل وفى عام ١٩٠٩ سافر

شيكز الى انجلترا لكى يحتج على الطريقة غير المرضية لحماية الحق الانتخابي لغير البيض فى قرار الوحدة الجديدة ، وذلك حسبما صرح ؛ لأن أغلبية الثلثين المطلوبة لاحداث أى تغير لن تكون واقية على الاطلاق . وقد تحققت مخاوفه ، وذلك لأن الجنرال هوتزوج - فى عام ١٩٣٦ كما أشرت الى ذلك من قبل - استحوذ على أغلبية وأبعد كل الناخبين الافريقيين الى قائمة منفصلة ، وأعطى لهم حق انتخاب ثلاثة من البيض لمجلس النواب وأربعة آخرين لمجلس الشيوخ . وفى سنة ١٩٥٥ لفق المستر ستريجدوم أغلبية الثلثين وذلك بزيادة عدد مقاعد مجلس الشيوخ على أسس غير ديمقراطية ليس لها مثيل من قبل ، وعزل الناخبين الملونين الى قائمة منفصلة . وقد أنذرت المصادر العليا قبل ذلك بأن الحكومة سوف تلغى فى الحال تمثيل الافريقيين فى البرلمان تماما . كيف نستطيع مرة أخرى أن نطالب فى عام ١٩٥٨ بحق انتخابى من ذلك النوع الذى منح فى عام ١٨٥٣ والذى أهمل تماما ؟ ليس من الممكن ذلك .

ان الخوف الذى يدفع الى ابتلاع هذه الحقوق غير مفهوم بالطبع ؛ انه الخوف من أن تؤدى المرونة أو الادارة من أى نوع الى غلبة السود عاجلا أو آجلا ، ومن ثم تعريض مقاييس حضارة المجتمع للخطر . ولكن المشكلة أبعد غورا من ذلك ؛ فالخوف هو أن تكتسح أغلبية من السود - والذين مهما كانوا متحضرين سوف يثأرون لاخطاء الماضى من جماعة البيض .

هل ستطالب أغلبية السود بالثأر نتيجة لاخطاء الماضى ؟ وهل ستتحمل هذه الاغلبية سياسة القمع من المواطنين البيض ؟ من الممكن أن نجيب على هذا السؤال بتأكيد واحد ، وهو أن أغلبية السود لن يكون لديها على الاقل الدافع الذى كان وراء قوانين الكتب التى وضعها الوطنيون ، وهى الخوف من أن يكتسحوا .

وهنـاك سؤال أخير : هـل من العملى أو من المعقول فى الحقيقة أن نضع أمام الناخب الأبيض مثل هـذا الهدف النهائى كحق الانتخاب العام حتى ولو كان مشروطا ؟ وهل يجب ألا نضع أمامهم برنامجا أسلم وأكثر تدرجا ، حتى تكون أمام أى شخص فرصة أفضل للحصـول على مقعد ، والتأثير فى مجلس البرلمان ؟

وفى المجتمعات الاخرى يكون الطريق السليم بدون شـك هو أن نبعد الناخب عن الطـريق الخطير وذلك بالوسائل اللطيفة والتدريجيـة ؛ وليست جنوب أفريقيا مجتمعـا عاديا ؛ وكذلك فليس هنالك الوقت الكافى لهذه الوسائل اللطيفة والتدريجية . وكما أوضحت من قبل ، ليست الفرصة هى اختيار بين الثـورة والتدرج ، ولكن بين الثورة والتطور المذهل .

هل سنكسب ؟ لا نعرف ذلك ؛ ولكننـا مع ذلك نعتبر أن تنظيم رأى الاحرار الآن سوف يجعل كلا من البيض وغير البيض يؤثرون فى النتيجة النهائية . ومن ثم فسوف نستمر فى رسالتنا

طالما كانت لدينا القدرة على القيام بالمهمة البرلمانية . ومن ثم دعنا نستمر في اعتبار المهام خارج نطاق البرلمان ، هذه الكلمة التى ربما أضيفها ، والتى تفزع كثيرين من البيض فى جنوب أفريقيا بدون مبرر .

ولسوف أختتم هذا الفصل بملاحظة مقتضبة .. لقد جعلت الحكومة الوطنية فى جنوب أفريقيا من غير الممكن فى الحقيقة لأى معارضة أن تبعدها بالوسائل البرلمانية ؟ ولكنها بينما فعلت ذلك تتظاهر بأنها تفعل ، وبمعنى آخر ، فان الحكومة بعد أن تأكدت أن هذه اللعبة البرلمانية خاسرة بالنسبة للمعارضة ، تصر على أن تستمر فى لعبها .

الفصل التاسع

دور حزب الاحرار

ومن المعقول اذن أن كثيرا من النشاط السياسى فى جنوب أفريقيا لايمكن أن يكون برلمانيا تماما، فقد رأينا أن ما يقرب من ٨٠٪ من السكان ليس لديهم حق الانتخاب العادى ؛ وأن الحكومة تتوعد بالغاء الحقوق الانتخابية التى يتمتعون بها - ان كليا أو جزئيا - ومن ثم فليس من المستغرب أن يوجه جل النشاط السياسى الى خارج البرلمان . وتريد أحزاب مثل الحزب المتحد ؛ والحزب الوطنى أن يكون العمل السياسى داخل نطاق البرلمان ؛ وتنظر الى أى شخص أو أى تنظيم يتكلم عن المهمة خارج نطاق البرلمان كشخص مخرب أو كتنظيم هدام . والاكثر من ذلك ففى استطاعتهم التمويه على البيض فى أى مكان آخر ؛ والذين يبدون استغرابهم لعدم وجود غير البيض من الأشخاص فى البرلمان ؛ وذلك باقناعهم أن فارق اللون ليس نظاما كريها ؛ ولكنه حصن سليم للديموقراطية والحضارة .

وليست القومية الافريكانية الآن فى مركز من القوة الكاملة التى تظهر من الناحية البرلمانية . فهى تقود وتؤيد نصف عدد البيض فى القطر والبالغ عددهم ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ ؛ وبجانب ذلك تحافظ

على الامتثال الاجبارى لـ ٠٠٠ر٠٠٠ر ١١ من غير البيض ؛ بعضهم ليس لديه المام كبير بالسياسة ؛ ولكنهم يعرفون جيدا ماذا يعنى أن يساقوا ؛ فى بعض الأحيان بأدب ؛ وبمنتهى القسوة فى أحيان أخرى •

ومن سكان العالم الخارجى البالغ عددهم ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠٠ر٢ نسمة ؛ لانستطيع أن نجد أى تأييد للتفرقة العنصرية فىأماكن مثل كينيا ؛ والمسيسبى ؛ والجزائر •

والقومية الافريكانية تخاف من عدم صلابة قبضتها • وحتى الآن ؛ وهى فى قمة قوتها ؛ ويعلن الوزير جان دى كليرك . وهو يتحدث فى برتس فى ٢١ يونيو عام ١٩٥٨ « يجب علينا أننحارب حتى النهاية الأليمة وأن نساند المستر ستريجدوم » ويذكر المستر جان دى كليرك الافريكانيين دائما بألا تفتر هممهم •

وهذا الموضوع فقط معروف جيدا • فالقومية الافريكانيةلابد وأن يكون لها أعداء حتى ولو كانت تخاف منهم • ويجب ألاتشعر بالأمان مطلقا ؛ وذلك لأنها ستكف حينئذ عن انتباهها •

لقد قاد ذلك بعض معارضيها الى القول بأن القومية الأفريكانية يجب ألا تعارض بشدة على الاطلاق ؛ لأنها ستنقلب حينئذ وترد على أعدائها بشكل أكثر ضراوة • ومن الممكن أن تسمع هذهالمناقشة فى كثير من دوائر المعارضة ؛ وحتى فى الدولة الأجنبية ؛ وكلها

تقول بأنه كلما كانت القومية الأفريكانية أكثر أمانا ؛ كلماأصبحت أكثر لطفا وتسامحا •

وهذا رأى خاطىء على ما أظن • فالقومية الأفريكانيةلن تشعر بالأمان مطلقا • فقوتها العظيمة تنبع فقط من عدم الشعور بالأمان• ولهذا السبب لن يخف هذا الشعور بعدم الأمان ؛ وذلك لأنقوتها العظيمة لن تكون كافية على الاطلاق • وأنا واحد من هؤلاء الذين يؤمنون بأن القومية الأفريكانية ـ ليس لافتقارها الى الشجاعةولكن لحاجتها الى أن تصل الى ذروة القوة ـ لن تنهض فى وجهأى صراع حقيقى لسياسة الباسكاب التى تتبعها • وعليها ـ كما فعل الانجليز فى الهند ـ أن تكيف نفسها حسب الظروف الجديدة ـ ومن ثميجب أن تعارض القومية الأفريكانية بثبات •

فالأحرار لايرغبون مطلقافى تحطيم الأفريكانيين ؛أوالتدخل فى لغتهم ؛ أو عدم مراعاة التقاليد والعادات التى لاتشمل طردأناس آخرين • وأمام القومية الأفريكانية درس صعب يجب أن تتعلمه ؛ انها لا بد أن تعيش ؛ كما كانت تعيش فى الماضى ؛ من وحى قوتها الذاتية . لابفضل القوانين الوقائية التى تسنها • ونحن نتخيل فى المجتمع الجديد أن ينال كل أفريكانى نفس الحماية لحقوق الانسان الأساسية كما يمارسها أى مواطن آخر •

والأحرار يعارضون ـ كما يظن بعض الناس ـ الأسلوب الخاص للقومية ؛ ولكنهم يعارضون تماما أن تطبق الحكومة هذا الأسلوب الخاص والذى يذهب حتى الى درجة تقريره « النوعية

الخاصة » لأى شخص ؛ والتى تمانع فى أن يتعلم الطفل باللغة التى يرغبها والده . والأحرار لايتعارضون مع القومية الأفريكانية لأنها تبحث عن ضمان بقاء الأفريكانيين ؛ ولكن لأنها تريد أن تفعل ذلك على حساب الجماعات الأخرى . ولسوف يتنكر الأحرار لمبادئهم تماما مالم يعارضوا القومية الا فريكأنية كما تتمثل فى الحكومة الوطنية .

واليوم تحجم جماعات المعارضة فى جنوب أفريقيا عنأن تقول شيئا أو أن تفعل شيئا يكدر مشاعر الأفريكانيين ؛ وذلك لأن الناس المعتدلين حريصون دائما على تعميمات الجنس ؛ ولقوة حكومة الافريكانيين الوطنية ولكن الوطنى الأفريكانى هو الذى يصر على أنه لا يختلف عن حكومته ؛ ولن يكون هناك مخرج لكى نتجنب هذه المسألة . فالوطنيون الأفريكانيون وحكومتهم مسئولون عن قوانين التفرقة التى يتسم بعضها بالصرامة والقسوة . ولذلك يجب على كل محبى الحرية أن يعارضوهم ؛ ونظرا لقوة مركزهم فى البرلمان ؛ يجب معارضتهم بطرق أخرى .

ودور حزب الأحرار (والأحرار الآخرون الذين لاينتمون الى أحزاب) أن يعززوا فى كل جهة المعارضة ضد الوطنيين . ولا يعنى ذلك تكوين جبهة مشتركة موحدة ؛ ولكنه يعنى مشتركة فيما يتعلق بمعارضة سياسة التفرقة العنصرية . وما هى المعارضة الحقيقية التى يمكن أن توجه للوطنيين الأفريكانيين ما لم تكن هى معارضة

المدافعين عن الديمقراطية مهما كان جنسهم ولونهم ؟ وهنا نجد أن الحزب المتحد لا يستطيع على الاطلاق أن يعارض الوطنيين بشكل حقيقى لأنه لا يستطيع أن يدرك وحدة الدفاع عن القيم الديمقراطية والحرية التى يقوم بها البيض وغير البيض معا •

وبالرغم من هذه العوامل المتضادة ؟ فقد تقدمت قضية الديمقراطية التى تعتمد على الاختلاط بين الأجناس ؟ أو عدم الاختلاط بينها ؟ واتخذت صفة أكثر ثباتا فى السنين الأخيرة • لقد وجد هذا التعاون دائما ؟ ولكن بعض الناس يميلون الى التهكم على الحرية فى عهدها الأول ؟ مثلما يميل بعض الزنوج الامريكيين الى التهكم على بوكر واشنجطن •

ومن رواد هذا المجال الحديث مجلس الديمقراطيين البيض ـ الذى أسس فى عام ١٩٥٢ ـ والذى أقام علاقات قوية مع المجلس الأفريقى الوطنى ومجلس هنود جنوب أفريقيا ـ ومنظمة الملونين ؟ والتى تمثل فى مجموعها « حركة المؤتمر » ؟ وهذه الحركة كانت مسئولة عن عقد مجلس مؤتمر الشعب فى عام ١٩٥٥ • وقد أصدر هذا المجلس وثيقة الحرية ؟ وهى وثيقة لحقوق الانسان ذات صبغة ديمقراطية حقيقية ؟ باستثناء بعض نقط الخلاف التى تدافع عن تأميم الاراضى ؟ والبنوك وبعض الصناعات ؟ مما لا يقبله حزب الأحرار • ولقد كان عقد مجلس الشعب عملا يتسم بالشجاعة والاقدام ؟ وكان مسئولا جزئيا عن القاء القبض على كثير من الزعماء المشتركين بتهمة الخيانة العظمى ؟ فقد اعتقل ١٥٦ شخصا ؟ ثم أطلق سراح ما يزيد على

٦٠ منهم بعـد الاجراءات الأولية ؛ وواجه ما يزيد على ٩٠ ٪ منهم المحاكمة ؛ التى بدأت فى أغسطس عام ١٩٥٨ •

وقد رفض حزب الأحرار ـ بالرغم من دعوته فى النهاية ـ حضور مجلس الشعب ؛ ولكنه غضب لاعتقال الزعماء ؛ وقد انضم رئيسه ـ أنا فى ذلك الوقت ـ الى الشخصيات غير الحزبية مثـــل أسقف جوهانسبرج ؛ والقاضى لوكاس ؛ والدكور الن هيلمان وذلك لجمع النقود اللازمة للدفاع عن المعتقلين •

وأعتقد أنه من الضرورى لكى نفهم بوضوح العلاقة بين حزب الأحرار ومجلس الديمقراطيين أن نقول شيئا عنهما ؛ اذ أن التعاون بينهما من أجل محاربة التفرقة يكون عاملا مهما • ومن الضرورى أن نفهم أنهما يتبعان طريقين مختلفين مستقلين عن بعضهما ؛ وان حزب الأحرار قد أسس عندما كان مجلس الديمقراطيين موجودا بالفعل ؛ وهذا يبين أن كلا منهما يمثل ميولا مختلفة ونظريات اجتماعية مختلفة وأنا لا أنوى أن أتكلم فى هذا الموضوع ؛ ولا أرغب فى المفاضلة بين كل من الحزب والمجلس بقدر ما أرغب فى توضيح العلاقة بينهما ؛ وذلك لأن كثيرين من المراقبين الأجانب لايستسيغون وجـــود منظمتين منفصلتين عن بعضهما يمثلان حسب رأيهم وجهة نظر واحدة وهناك ملاحظة عادلة فى نظرى ؛ وهى أن طبيعة موقف حزب الأحرار فى حد ذاتها من أهم أسباب الخلاف الرئيسية ؛ فالمجلس أكثر تنظيما بينما الحزب يفتقر الى ذلك ؛ وللمجلس عقيدة أكثر وضوحا ؛ وهو

يخصص وقتا أقل للمناقشات والمباحثات ؛ والمجلس أيضا بفضل قوة الوحدة عن غنى الاختلاف • وينعكس هـــذا الاختلاف فى النظرية الاجتماعية أيضا ؛ حيث أن المجلس يعلق أهمية على جهـــاز الدولة الكفء ؛ بينما يعلق الحزب أهمية على حرية الفرد • ويعتبر بعض أعضاء المجلس تقديس الحزب للحرية كنوع من الحيطة والمحافظة ؛ بينما يعتبر بعض أعضاء الحزب أن المجلس ينظر الى تأييد حقوق الانسان كجزء صغير فقط من استراتيجية كبيرة • ولكن مما لا شك فيه أن كلا التنظيمين يكره التفرقة العنصرية ؛ ولكن أحدهما يريد القضاء عليها بتغيير جذرى لبناء المجتمع ؛ والآخر بتوزيع السلطة ؛ وحماية حقوق الانسان • ويبدو أن هذه الاختلافات كانت سببا فى قيام اختلافات معينة فى الطباع ؛ تجعل من الصعوبة دائما المحافظة على التعاون الوثيق • ولكن من الواضح بالنسبة لى انه ما لم نداوم على هذا التعاون فسوف نعانى من أجل الوصـول الى الهدف المشترك الذى يعمل كلانا باخلاص من أجله • ويمكننى أن أضيف ملاحظة أخرى وهى أن المجلسين الأفريقى والهندى قد استطاعا توثيق الصلة بين مجلس الديمقراطيين وحزب الأحرار بشكل أكثر سهولة ممـا لو أمكنهما القيام بذلك لأنفسهما ؛ وأنا أعزو ذلك الى حقيقة أن مجلس الأفريقيين والهنود يتضمنان وجهات نظر عديدة ؛ وهم يضيعون كثيرا من الجهد للتوفيق بين العناصر المختلفة من أجل الهدف المشترك •

ونحن لا نستطيع كذلك أن نسدل ستارا على هذه الحقيقة ؛ وهى أن حزب الأحرار قد دخل الميدان بعد مجلس الديمقراطيين ؛

وقد سبب ذلك فى حد ذاته بعض المتاعب ؛ فقد قالوا : لماذا وصل الحليف الى المعركة متأخرا ؛ ولماذا أحضر معه شعارا آخر عندما أتى ؟ .

وكيفما كان الأمر فقد كان السؤال كالآتى : ـ

هل يمكن التعاون بين الأحرار ورجال المجلس من أجل نفس الهدف ؛ محاربة التفرقة العنصرية ؟ ولقد أسرعت عجلة السير فى طريق هذا التعاون وذلك بعقد مؤتمر للافريقيين البارزين فى بلو مفونتين فى أكتوبر سنة ١٩٥٦ ؛ وذلك من أجل مناقشة تقرير توملينسون ولقد أقر هذا المؤتمر الشهير بعض المستندات المعروفة ؛ وأستطيع أن أقتبس منها الآتى : ـ

« ان المؤتمر لا يقبل وجهة النظر القائلة بأن الفرصة أمام جنوب أفريقيا هى اما « التكامل التام والنهائى » أو « التفرقة التامة والنهائية بين الأوروبيين والبانتو » (مقتطفات من تقرير توملينسون) ويصر المجلس على أن الموقف فى جنوب أفريقيا يتطلب التعاون والترابط بين مختلف الأجناس التى تكون أمة جنوب أفريقيا ؛ ويستنكر أن تمثل هذه المساواة تهديدا لبقاء الرجل الأبيض فى جنوب أفريقيا . »

ثم يضيف الى ذلك :

« والمؤتمر مقتنع بأن السياسة الحالية للتفرقة انما تكون تهديدا للعلاقة بين الأجانب فى القطر . ومن ثم ؛ فان المؤتمر ـ من أجل

كل أفراد الشعب ومن أجل مستقبل القطر - يطالب كل المنظمات الوطنية بأن تجند كل الناس ، بصرف النظر عن الجنس ، أو اللون ، أو العقيدة ؛ لتكوين جبهة متحدة ضد التفرقة ؟

وكخطوة أولى فى طريق تكوين هذه الجبهة المتحدة ، أقترح المؤتمر عقد مؤتمر آخر ؛ يتضمن كل الأجناس بقدر المستطاع .

ومنذ هذا الوقت عمل حزب الأحرار ، والمجلسان وغير المجلسين ؛ وحزب العمال ؛ والاحرار غير الحزبيين ؛ ورجال الكنيسة البارزين من أجل عقد مؤتمر يضم كل الأجناس ؛ وقد تم ذلك فى جوهانسبرج فى ديسمبر سنة ١٩٥٧ . ولقد انصب اهتمام المؤتمر طوال فترة انعقاده على تعدد الأجناس فى القطر ؛ وظلم وسخافة سياسة التفرقة ؛ وأهمية الدستور المكتوب ؛ ووثيقة الحقوق ؛ والحق الانتخابى لجميع المواطنين .

ان التأييد الكامل لمؤتمر جميع الأجناس هو جزء من سياسة حزب الأحرار . والحزب يعرف أن مجتمعنا لا يفرق بين الاجناس وهو المجتمع الوحيد الذى يقدم لنا أمل المستقبل ، حيث يكون هناك دستور يضمن حقوق الانسان الرئيسية . ومن ثم فسوف يعمل الحزب جاهدا من أجل تأييد مؤتمر جميع الأجناس ؛ وسوف يكون تأييده لحركة المجلس معبرا عنها بهذه الطريقة ، أو بأى طريقة أخرى تؤيد نفس هذه المثل .

ولسوف تكون سياسة الحزب أن يقدم كل تأييد ممكن للمجلس

الأفريقى الوطنى الذى وعد بالعمل من أجل مجتمع ديمقراطى لا يفرق بين الأجناس • وهنا أجد من المناسب ـ ولسوف أتحاشى هنا أى مناقشة ليست فى محلها للشئون الخاصة بتنظيم صديق ـ أن أناقش بايجاز المشكلات التى تلازم مثل هذا التنظيم •

فالمجلس الأفريقى الوطنى تنظيم غير حزبى ؟ ومن ثم فانه يحوى على الأقل اتجاهات فكرية ثلاثة • فالاتجاه الاول يؤمن بأن التغيير الجذرى للمجتمع هو الطريق الوحيد ؟ والاتجاه الثانى يؤمن بالتوسع فى اعطاء الديمقراطية لكل شخص بالغ وحماية هذه الحقوق ؟ بينما يعارض الفريق الثالث القومية الأفريكانية وينادى بالقومية الأفريقية ؟ وهذا يعنى « أفريقيا للافريقيين » ومن الممكن تفسير ذلك بأن أفريقيا هى ملك لهؤلاء الذين عاشوا على أرضها قبل قدوم الأوروبيين والآسيويين ! ولا يستطيع رجل حزب الأحرار أن يوافق الا على الاتجاه الثانى فقط ؟ ومن ثم فسوف تكون مهمة الحزب ؟ ألا يحاول أن ينال من المجلس ؟ بل أن يوجه تأييده الكامل لهؤلاء الذين ينادون بالتوسع فى الحقوق الديمقراطية • وهذا هو ما فعله الحزب بالفعل •

ولسوف يجد الحزب صعوبة فى تأييد الحزب المتحد ؟ أو حتى الحزب الاتحادى ؟ الا فى مسائل معينة • فحقيقة أن هذين الحزبين يؤمنان بفارق اللون ؟ يجعل التعاون الوثيق معهما أمرا صعبا • وزيادة على ذلك فان الحزب الاتحادى ضد النظام الجمهورى ؟ وهو يعتقد

بأن معارضة قوية من قبل الناطقين باللغة الانجليزية من أتباع ناتال تستطيع أن تمنع قيام النظام الجمهورى .

وموقف حزب الأحرار بالنسبة للنظام الجمهورى صريح ؛ فهو يتمسك بأن النظام لن يوجد الا بعد القيام باستفتاء لمعرفة رأى الاغلبية بصرف النظر عن الجنس واللون ؛ وهو يعارض كل أشكال الحكومات المستبدة ؛ وعلى الأخص حكومة جمهورية كتلك التى تخيلها أو رسمها مشروع الدستور الذى وضع فى عام ١٩٤٢ ؛ والذى وضعه الحزب الوطنى . وفضلا عن ذلك فان موقف حزب الأحرار تجاه الكومنولث صريح هو الآخر . فهو يصر على « أن من صالح جنوب أفريقيا كدولة مستقلة ذات سيادة أن تحافظ على علاقاتها مع الكومنولث .. »

ومن ثم فان موقف حزب الأحرار تجاه الحزب الاتحادى صريح للغية ، فهو يؤيد الحزب الاتحادى فى معارضته للنظام الجمهورى ؛ ليس لأنه يعارض فى اقامة الجمهورية ؛ بل لأنه يعارض اقامة جمهورية تفرق بين الأجناس كتلك التى يريدها الحزب الوطنى وكذلك فان موقف الحزب تجاه الحزب المتحد صريح هو الآخر . انه يأمل أن يجذب الى صفوفه الأعضاء الأحرار من هذا الحزب .

ولقد توطدت علاقات حزب الاحرار مع المجلس الهندى أكثر فأكثر ؛ وذلك الى درجة كبيرة كنتيجة لمعارضة الحزب التامة ولقبوله جماعة الهنود كمواطنين فى جنوب أفريقيا بكل ما فى ذلك

من معنى • وأنا لا أشك في أن معارضة مجلس الديمقراطيين أقل اخلاصا ، بل على العكس لقد أثبت مأزق جماعة الهنود أنه من أقوى العوامل التي ربطت الحزب بمجلس الديمقراطيين •

لقد كانت هزيمة المستر الكس هيل والمستر ليولدفيل ؛ مرشحي حزب العمال في انتخابات عام ١٩٥٨ ؛ لطمة كبيرة موجهة لقضية الأحرار • ونحن نرغب في أن تكون هناك علاقات أوثق ؛ ولو بشكل ائتلافي ؛ بين الأحرار والعمال ؛ ونحن نعتقد أنه من الممكن أن يفيدونا في الشئون الاقتصادية ؛ كما نعتقد تقريبا - وأنا آمل بتواضع - أن لدينا القليل مما نستطيع أن نقدمه بفضل معارضتنا التامة لسياسة التفرقة العنصرية • لقد كان احترامنا لأعضاء حزب العمال البرلمانيين لاحدود له ، ولكنهم يبحثون على مايبدو على حلول أكثر واقعية ؛ ويجب عليهم أن يبحثوا عن ذلك على أساس المعارضة التامة لحاجز اللون ؛ وينبغي عليهم أن ينضموا الينا وأن يضيفوا الى قوتنا مواهبهم العظيمة •

ثمة تنظيم آخر يجب أن نذكره ؛ وهو حركة الوحدة لغير الأوروبيين ؛ وهو يضم الملونين الى درجة كبيرة ؛ والذي عارض بدوره - تحت تأثير الرفض الذي لا حصر له - أي تعاون مع المنظمات التي ترتبط بالبيض ؛ والتي يحاول أعضاؤها التمسك بما يبدو مستحيلا تماما في جنوب أفريقيا ؛ ألا وهو الابتعاد تقريبا عن كل نشاط انساني ؛ الا ذلك الذي يمكنهم المساهمة الكاملة فيه •

وينادى هذا التنظيم بالمقاطعة على نطاق كبير • ولقد امتدت معارضة هذا التنظيم الى المجلسين أيضا ؛ فقد عرقلوا بغضب حملة مجلس الهنود ضد التفرقة العنصرية ؛ وذلك لأن المجلس تعاون مع الأحرار ولكم أود أن يخرج هذا التنظيم عن عزلته المريرة ؛ وأن يتعاون مع كل القوى الأخرى التى تناضل ضد الحزب الوطنى •

الفصل العاشر

الخـــاتمة

اذا كان ولابد أن نخرج بنتيجة من هــذه المقالة فستكون الآتى : هو أنه لايوجد شىء ثابت فيما يتعلق بالموقف السياسى فى جنوب أفريقيا . فهناك فترات من الهدوء الظاهــرى ، الذى يثور تحته هدير شديد ، يسير فى هذا الاتجاه وذاك بواســطة كثير من التيارات المتعارضة . وتكمن مصادر هذاالهديروتياراته المختلفة فى التاريخ البعيد لسكان جنوب أفريقيا . وكما أكدت قبل ذلك أننا لا نستطيع أن نفهم جنوب أفريقيا فى الوقت الحاضر وأن نضع لهذا البلد المستقبل مالم نعش فى آثار هذا الماضى .

ماهى ملامح هذا المستقبل ؟ لايستطيـــع أى فرد أن يخبرنا بذلك . وبالنسبة لاى شخص ذى عقيدة حــرة سيكون هــذا المستقبل مشرقا ؛ اذا ما أدى الى خلق مجتمع ينعم فيـــه النـاس بالحرية ويضمنون فيه أن تصان كل هــذه الحقوق التى تتعلق بحياتهم اليومية . كيف سيحاول الأحرار ارشاد جنوب أفريقيا الى هذا المستقبل المرموق ؟ .

سيكون عليهم اقناع البيض الذين يعارضون الحــكومة

الوطنية بأنه ليس لديهم أمل مهما كان ؛ في هزيمة هـذه الحكومة بمجرد معارضتها كل خمس سنوات في انتخابات تعرف نتائجها مقدما فمن الممـكن التغلب على الوطنيين فقط بواسطة معارضة كبيرة ومنظمة لاتعتمد على الجنس . ومثل هذه المعارضـة هي التي تستطيع أن تجمع كل من يعادى الوطنيين .

ويجب أن يذكر البيض في جنوب أفريقيا دائما بحقيقة أنهم من الممكن ألا يتوقعوا مركزا ممتازا لاولادهم في المستقبل . وأكثر مايخيفهم هو أن تدور العجلة دورة كاملة ، وأن تستبدل سـيادة البيض بسيادة السود . وكيفما كان الأمر فانهم يجب أن يضيفوا على حقيقة ان عنادهم في الوقت الحـالي هو من أكثر الاسباب احتمالا لما يخافون منه في المستقبل وعليهم أن يعرفوا أن هنـاك كثيرا مما سيجنونه اكثر مما يحتمـل أن يخسروه اذا ماتخلصوا من حاجز الجنس من الآن والى الابد . وعلى عاتق الاحرار تقع مهمة رد هؤلاء الناس الى صوابهم .

وعلى حزب الأحرار أن يقنـع سكان جنوب أفريقيـا من البيض والسود ـــ بأن الديمقراطية التي لاتفرق بين الاجناس هي مطلب عملي من الممكن أن يؤخذ به . وعلى هذه الديمقراطيـة أن تواجه حكومة سياستها أن تزيد من صعوبة الاختـلاط بين الاجناس وترغب في أن تجعل الاتحاد السياسي بين الاجنـاس أمرا مستحيلا . فالاختلاط بين الاجناس بالنسبة للدكتور فيروورد

أمر محـــــرم • ولكنه بالنسبة لرجل الأحرار العمـــاد الاسامى للمجتمع الذى يعرف جيدا أنه لابد وأن يولد فى جنوب أفريقيـــا اذا أمكن تجنب الصراع • وكل ما يأمله رجل الأحـــرار هو أن يكون مستعدا لان يواجه هذا الصراع عندما يحل . وذلك لان الفرصة لاخراج الوطنية الأفريقيين - اذا لم يكن مســـتعدا - من مجاهل التفــرقة العنصرية المظلمة والكئيبة الى الرحـــاب الواسعة المضيئة لتعدد الأجناس ؟ سوف تضيع ؟ وسوف يضـــيع الامل لاحداث تطور مذهل فى جنوب أفريقيا وعندئذ ستكون الثورة هى الطريق الوحيد .

لقد قلت ان الأحرار فى جنـــوب أفريقيـــا لا يستخفون بالصراع الذى يواجههم • وقد قلت ان بقاء القيم الأساســـية التى تسمى فى بعض الاحيان بالقيم المسيحية ، فى جنوب أفريقيا وربما فى المناطق الأفريقية التى توجد تحت الصحراء انما يعتمـــد عـلى مقدرتهم على مواجهة هذا الصراع - ولكن الصراع لايقتصر فقط على الاحرار فى جنوب أفريقيا . انه يواجه كل رجل يعيش خارج جنوب أفريقيا يقدر نفس هذه القيم وعلينا أن نعمل ما فى جهدنا لمساعدة هؤلاء الرجال فى جنوب أفريقيا والذين يكافحون اليوم لشق طريقهم الى مجتمع تكون فيه الباسكاب والتفرقة من مخلفات الماضى فالى جانب كيفية حل مشكلة الاجناس ، تمتاز جنـــوب أفريقيـــا بموقعها الاستراتيجى ومصادرها الغنية بالمواد الخام الحيوية ، وسوف يحكم زعماء المستقبل فى جنوب أفريقيا

على رجال العالم الخارجى على أساس نظرتهم الى هذا الصراع فى السنين القليلة القادمة وليفهم الغرب ذلك جيدا .

من هذه الخلاصة اذن نرى دور حزب الاحرار ، كمؤيد لجبهة تعدد الاجناس وعدم التفرقة بينها كشريك لحركة المؤتمر فى كل معارضة للتفرقة العنصرية ... كمؤيد لكل هؤلاء الذين يؤمنون بالديموقراطية التى لاتقوم على أساس الجنس ؛ كفاضح لخرافة أو أسطورة التفرقة الكلية ؛ كميلاد للأحرار الذين طردوا من الحزب المتحد ؛ كمؤمن بامكانية حدوث التطور ، كمعارض لكل أشكال القومية المحدودة ؛ كمؤيد للحكومة الدستورية ولحكم القانون ؛ وفوق كل ذلك باعتباره مدافعا عن الشعب ضد الاستئثار بالسلطة ، ومدافعا عن حقوق البشر التى يكافح من أجلها الأحرار فى كل بلاد العالم .



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤١٠١٢ ـ ٤٥٣٤٦





١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤٠٧٥٣ ـ ٤١٠١٢

العدد ٢٨٠ الثمن ٣ قروش

